حَقيبَة الرَجُل الثَرِيِّ

اسم الرواية	حقيبة الرجل الثري
تأليف	ضياء محمد فتحي
المراجعة اللغوية والتدقيق	محمد غازي تدمري
تصميم الغلاف	قسم الجرافيك بدار الوليد
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية	2017 / 19168
الترقيم الدولي	978-977-6560-14-7

الطبعة الأولى **2018**

تطلب كافة منشوراتنا:

حلب: دار الكتاب العربي - الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين - ت: 2256870

دمشق: مكتبة رياض العلبي - خلف البريد - ت: 2236728

مكتبة النوري - أمام البريد - ت: 2210314

مكتبة عالم المعرفة - جسر فيكتوريا - ت: 2228222

مكتبة الفتال - فرع أول - ت: 2456786

- فرع ثاني - ت: 2222373

دار الوليد للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - الحجاز - شارع مسلم البارودي تلفاكس: 00963/11/2235401 ص.ب 34825

مصر - القاهرة - التجمع الخامس - الحي الأول - بناية 152 - هاتف: 01148745162

لبنان - تليفون: 434186/ 05 - 652241/ 03 - ص.ب 3043 الشويفات

daralwaled@yahoo.com

حقوق الطبع محفوظة

تحذير: جميع الحقوق محفوظة لدار الوليد للدراسات والنشر والترجمة وغير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه على أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية أو نقله بأية وسيلة أخرى أو تصويره أو تسجيله على أي نحو بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر.

رواية

حَقيبَةُ الرَّجُل الثَرِيِّ

ضياء فتحي موسى

الوليد
للنشر والتوزيع

تطلب المنشورات من دور النشر والمكتبات التالية

البلد	أسماء المكتبات
مصر	دار الكتاب العربي: 25 شارع عبدالخالق ثـروت (القاهـرة) - مكتبات الشـروق - مكتبات ديـوان شركة الشرق للمكتبات - مكتبات مؤسسة الأهرام - مكتبـات أخبـار اليوم- مكتبة منشأة المعارف (الإسكندرية)- مكتبات دار الفاروق (هايبر 6 أكتوبر) - مكتبات (أ)- مكتبة الكتب خان - مكتبة الخياط (الإسكندرية)- مكتبة دار الحديث (أسوان) - كتابيكو- مكتبات فكرة
ليبيا	طرابلس: المكتبة العلمية - المكتبة العربية - مكتبة السلام - دار الوليد - دار المعرفـة - مكتبـة 17 فبرايـر (بنغازي)- دار الجيـل (بنغازي) - مكتبـة الشعـب (مصراتـه)
تونس	إداريات ومعارف سوسة - شركة كتبكم تونس - المركز التونسي للكتاب - دار المعرفة - مكتبة تونس - دار الجيل - مكتبة الكتاب - سو بيس - مكتبة نومام
الجزائر	دار العزة والكرامة للنشر والتوزيع (وهران) - دار الأنيس (الجزائر العاصمة) وسائر فروعها ومكتباتها بالجزائر - مكتبة ابن خلدون 75 ش ديدوش مراد (الجزائر العاصمة)- مكتبة المأمون شارع جيش التحرير جبهه البحر (وهران) - مكتبـة ابـن باديس جامع ابن باديس (وهران)
المغرب	الدار العالمية - دار الإنماء الثقافي - دار الثقافة - دار الأمان - مكتبة الألفية الثالثـة- وراقة المبادرة - دار إحياء العلوم الزاهرة - الناشر الأطلسي - وراقة الجنوب - مكتبة فرنسا- مكتبة باريس
السعودية	مكتبات جرير - مكتبات العبيكان - مكتبات تهامة - مكتبات الرشد - دار الوراق - مكتبات الشواف- مكتبة المتنبي (الدمام) - كنوز المعرفة (جدة) - روائع المعرفة (جدة) - المكتبة التراثية
الإمارات	مكتبات إنفنتي (دبي) - مكتبة زين المعاني (دبي) - مكتبات دبي للتوزيع - المكتبة التجارية (العين) - مكتبات جرير- البرج ميديا للنشر والتوزيع (أبو ظبي)
الكويت	مكتبات ذات السلاسل - دار الفكر الحديث - مكتبة العجيري - مكتبة الرسالة - الشركة المتحدة لتوزيع الصحف- مكتبات جرير - دار أفاق
سلطنة عُمان	مسقط: مكتبات جرير - أحمد ناصيف 0096892339307
البحرين	المكتبة الوطنية (المنامة) - مكتبات جرير
العراق	دار الكتب العلمية (بغداد) - دار المدى للعلوم والثقافة (أربيل) - دار التفسير (أربيل) - مكتبة هورمان (أربيل)- مكتبة برايتي (أربيل) - المكتبة القانونية - مكتبة النهضة (بغداد) - مكتبـة السنجـري (الموصل) - دارالزمـان (أدهوك) - مؤسسة المصباح (بغداد)- مكتبة المعرفة (باب المعظم)
الأردن	مكتبة دنديس -دار أسامة -مكتبة الفرسان -دار صفحات -كشك الثقافة العربية حسن أبو علي - دار جملون
فلسطين	مكتبة دنديس (الخليل) - مكتبة القدس (القدس الشريف) - دار العماد للنشر (الجليل) - دار الجندي (القدس)
السودان	مكتبـات القاضي (الخرطوم -أم درمان) - مكتبــة الدار البيضاء (أم درمان) - وادي النيل للتنمية البشرية (الخرطوم)
لبنان	شركة الشرق الأوسط - النيل والفرات كوم

الـمـوزع الحصـري

دار الكتاب العربي

سوريا - دمشق - الحجاز - شارع مسلم البارودي تلفاكس: 2235401 ص.ب 34825

مصر - القاهرة - 52 شارع عبدالخالق ثروت - شقة 11 تليفون: 23916122 - فاكس: 23933671

لبنان - تليفون: 434186 / 05- 652241 / 03 - ص.ب 3043 الشويفات

darelkitab@yahoo.com

www.darketab.com http://www.facebook.com/groups/darketab

http://twitter.com/darelkitab http://www.youtube.com/darelkitab

إهداء

إلى العقل، إلى القلوب والضمائر، وإلى البُهتان والحق والثرائر، إلى المسروق واللص، وإلى المال والصبر، والثراء والفقر، وإلى من يهمه الأمر..

ظلام، كان داخل غرفته، يضع رأسه أسفل الوسادة، تموج في جسده قشعريرة قلق وارتباك. منذ دقائق أطفأ أنوار شقته جميعها، أغلق النوافذ، وباب غرفته، ثم كوَّم جسده فوق سريره، اختفى أسفل اللحاف، وأغلق عينيه، لكن كل ذلك ليس إلّا محاولة هرب فاشلة، مثل محاولات كثيرة أخرى، في كل لحظة يرجو لهما الهلاك، أو الاختفاء من حياته على الأقل، كانا في الصالة، يصرخان كي يفتح لهما، وتسَّرب صوتهما إلى أذنيه من أسفل باب الغرفة..

- افتح الباب يا نجيب، افتح الأنوار، تخيفنا العتمة، أليس لك قلب يشعر بنا؟ إلى أين تهرب؟ اذهب إلى حيث تريد، إنّا لن نَبْرَحُكَ، وإنَّا ضدُكَ إلى أن ترجع، اذهب إلى آخر الدنيا، لكن ستظل لصًّا، وستظل تشعر بالذنب، سيقتلك ذنبك، وتموت وأنت لص، نجيب، هل تسمع صوتي، أنا أزعق كي تسمع، نجيب.. يا نجيييب
- دعه يا صديقي، يظن أنه بذلك قد تخلَّص منَّا، كيف ستتخلَّصُ إذن من الذي في قلبك، في قلبك رجل شريف يكره اللصوص يا نجيب، يَكْرهُهمُ أكثر من كرهنا لهم، هل ستقتله، لكنك

ستمزِّق قلبك إذا فعلت، هل ستنتحر؟ تموت كافرًا! لا دنيا ولا آخرة!

- لست لصًّا، ولن أكون، اتركاني أرجوكما.

قال أحدهما:

- أنت مسكين، لماذا لا تريح نفسك وتريحنا معك، لا تكن أنانيًا، فكّر في الآخر لأنّك لا تعيش في العالم بمفردك، علامة نقاء قلبك أن ترى غيرك! لكنك لا ترى، لا ترى سواك، لماذا الغرور والكبرياء؟ كأنَّ آدم وحواء ما أنجبا غير اثنين، جميع البشر وأنت، ثم ترى نفسك ابنهما المدلل!

قالت التي معه:

- أما عرفت أنَّ إنسانًا قد يُصيبُهُ العمى، أو الشلل، يكتئب، يُدمن الحبوب المنوّمة، تقتله صدمة عصبية، أو يتوقَّف قلبه عن ضخ الدماء..

يستمر في اللَّطم إلى أن يتورَّم وجهه وتسقط أسنانه، يفقد عقله، أو يخسر عائلته، يمد يده للغرباء ليقرضوه المال حد الرِّبا، يمشي خافضًا رأسه وسط الناس، تتحطم سمعته النبيلة ويُطرد من عمله..

- اسكتا

- يقضي وقتًا من عمره في السجن، لا يجد هو أو عائلته ما

يأكلونه، أو يلبسونه، أو ينامون تحت سقفه، يتحوَّل إلى مجرم تُطارده الشرطة طوال حياته..

- قلت اسكتا، أنا لستُ لصًّا

- يظل بلا زواج إلى سن الأربعين، أو لا يتزوَّج أبدًا، تمر أيَّامه ولم يُحقِّقْ حلمًا واحدًا من أحلامه البسيطة، ألا عرفت يا نجيب، أن ذلك، جميعه أو بعضه، قد يحدث لأي إنسان، إذا ما سرقه لص!، ها!

قالت:

- دعني أرحل، لماذا تحتجزني، أرجعني إلى أهلي يا نجيب

وقال الآخر:

- أنا أيضًا غمرني الملل منك ومن حماقتك، أرجعني إلى حمودي أرجوك، ومت من البرد لا يهمني، لم أعد صديقك من الآن.

صراخ .. اسكتاااااااااا

قبل أيام قليلة..

بضع دقائق متبقية على وصول الأوتوبيس، أشخاص كثيرون ينتظرونه على رصيف الطريق، صامتون مثل تمثال ثلجي يخشى تيارات الهواء العنيفة أن تضربه فتسقطه على الأرض ليتحطم. بعضهم يرتجف، الملابس التي يرتدونها ثقيلة، لكن البْرَدَ عتيدٌ لينفذَ منها إلى عظامهم مباشرة، نجيب يقف معهم، مرتديًا معطفه. امرأة شقراء شابة تقف أمامه، تقرأ في جريدة، تثنيها أكثر من ثنية وتقربها من عينيها، أرسل نظرة خاطفة تفحص دقَّة ملامحها وشيئًا من قوامها الفاتن، لا يجب أن يلحظ أحد أنَّه يُنعم النَّظر، سيقولون: نجيب المحترم يمتع عينه بغير أدب، بعض الذين يقفون يعرفونه، لكن هذه المرأة لا ينفع معها نظرة واحدة سريعة، رفع عينه ثانية، جسدها مثير، تشتريه جيوب وتوسلات الرجال بأغلى ثمن، إلّا إذا كانت لا تبيع. تذكر أنَّه من المحترمين، وعلى البجاحة التي تفور من عينيه أن تتوقف، وفي سبيل ذلك، توجَّه بعينه إلى الجريدة التي في يدها، علَّه يجد خبرًا يكون فاتحة خير ليومه، قرأ عنوانًا كبيرًا، شعر معه بماء مغلي تغرق فيه أحشاؤه، عبس وشتم فضوله.

«لص يسرق كلية أمِّه أثناء نومها ليبيعها».

البشاعة كلُّها هنا، نحمد الله أنّ الشرطة اكتشفت الجريمة قبلما يفكِّر

في الاستغناء عن قلب أمِّه. لو كان الخبر حقيقيًا، ليس فرقعة صحفية، لجاز الجزم، أنَّ هذا اللص كافر، وستعقد له محكمة تفتيش عمَّا قريب، هذا بافتراض أنَّ الضمير هو العقيدة التي يجتمع على الإيمان بها جميع البشر، ليقف في ذُلٍّ ويُسأل في مهانة: لماذا سرقت المرأة التي تكوَّنت في بطنها يا مجرم، وانغمسَت في الألم من أجلك يا حقير، وتحمَّلتْ عنك البلاء يا غليظ القلب، وهي أخوف الناس عليك يا عديم الحِس، وأكثرهم رأفةً بك وحبًا لك يا من لا تستحق شيئًا من الحب، لن تجد من يرجو الموت فداؤك إلّاها ياوغد، أو يطلب لك الرحمة وإن كنت تدوس وجهها بنعلك إلا هي يا قذر، ثم تسرق لحمها وكل لحمك منها يا جاحد.

أنزل عينيه إلى ساعة تلف معصمه، رقمية عتيقة جدًا، من صفاتها أنّها تفقد وعيها أو تموت معظم الأحيان. نظر ليعرف الوقت، لم يجد أرقامًا ظاهرة على شاشتها، ولأنَّه يعرف كيف يضخ في قلبها الحياة، مرجح يده التي فيها الساعة بعنف مثل الذي يضرب الهواء، كرر ذلك مرّات، بعدها تدرَّجت الأرقام في الظهور، أشارت إلى السابعة وأربع دقائق من صباح اليوم الثامن من أيَّام ديسمبر الباردة، الشمس مختفية في سحابة رمادية ضخمة، والطُرقات مغمورة بأمطار الليلة الفائتة.. انكفأ بوجهه على صدره، جعل رقبته الطويلة تغوص بين كتفيه، مرَّغ يديه المرتعشتين في مِعطفه من أجل تدفئتهما.

معطفه من الصوف، يصل إلى أبعد من ركبتيه، لا يتناسب مع الجسد الذي تحته، بإمكانه احتواء جسد ثان يحمل ذات النحافة، سنّه الشرعية عشر سنين في أقل تقدير، كل هذي سنين قُضيت في أشغال شاقة قلبت لونه الأصلي، الأصفر النضر، إلى درجات باهتة و متنافرة، وتسببت في هشاشة وتلف نسيجه الذي كان متماسكًا فيما مضى. ومن أماراته أيضًا، أربعة أزرار من منتصف الصدر إلى فتحة العنق، لا يُشبه واحدٌ الآخر في لون أو شكل، يتباعدون عن بعضهم مسافات متفاوتة. وفي الكُم الأيمن تظهر خيوط حمراء سميكة، ومثلها، باللون الأبيض، في الكُم الأيسر، وتظهر أيضًا، لكن بالأخضر، في منطقة الظهر. كل هذه الخيوط، الظاهرة في هيئة رُقَع غبية، جُعِلَت في مكانها من الأساس، كمحاولات فاشلة لمعالجة قَطع كبير، وصغير، في جسد المعطف العجوز. ومع المعطف، ارتدى نجيب بنطال جينز أزرق، وحذاءًا رياضيًا مُهترئًا.

أقسم أنَّه أقسى شتاء طوال التسعة وعشرين سنة التي عاشها..

وبفعل رياح اشتدت وتيرتها تدريجيًا، تطايرت من حوله كتل من الورق وأجزاء من الشجر، هذا مع الساقط من أسطح البنايات القريبة.

طوَّق وقفته بالحذر كي لا يسقط فوق رأسه شيء، توتّد في الأرض كي لا يطيِّره الهواء في أي وقت.

مدَّ نظره إلى الأفق، وسط السماء الهائجة، رأى طائرة ورقية صغيرة تحلِّق، تظهر كصورة مُثبَّتة بمسمار في حائط، ليس معروف من هو صاحبها الذي يتحكم فيها من الأرض، استمتع بالنظر إليها، ورأى أنَّها تُشبهه كثيرًا، تحمل بعض صفاته، فعمله في الحوش، يستلزم منه شجاعة وصبرًا وتحملًا، مثل هذه الطائرة، وينبغي عليه، إذا أراد أن يستمر موظفًا عند الرجل صاحب الحوش، أن يحافظ على هذه الصفات. لكن الطائرة بدت تختفي، ثم اختفت بكل هيئتها عن مدى بصره.

أطرق رأسه إلى الأرض، لتفاجئه عينان صغيرتان تحدجان في وجهه، طفل عنيد، وقف ملاصقًا له، يلبس بدلة ضابط شرطة سوداء، كاملة من الحذاء إلى القبُّعة.

استمر الطفل مصوبًا عينه، شعر نجيب بالضيق، يثق أنَّ وجهه لا يختلف عن بقيِّة الوجوه التي حوله، لا يحمل غموضًا يستوجب النظرات المفعمة بالفضول التي يرسلها الطفل، نظرات مبهمة تُشعره أنّه مطلوب للعدالة.

نجيب يميزه وجه هادئ، وملامح تبدو على الدوام مُرهَقة، وهو متوسط الطول، بشرته حنطية، شعره أسود قصير ومنحصر قليلًا من الجانبين.

رأى ليس من الصواب سؤال الطفل عن سر تحديقه، هو مجرد طفل في جميع الأحوال، لذا تجاهله.

تثاءب، فتح فاه عن آخره مُطلقًا هواءً دافئًا وسحابة صغيرة من الهواء، تمنى لو بإمكانه الاستفادة من زفيره في تدفئة نفسه. فرد ذراعيه، طال اثنين من الواقفين إلى جواره، ارتطمت يده اليسرى بوجه رجل، وارتطمت اليمنى، وكانت مقبوضة، بوجه رجل آخر أصغر سنًا، كان هذا الأخير والد الطفل العنيد.

أرخى ذراعيه، وظلَّت يده اليُمنى مقبوضة لبعض الوقت، فانتقلت عين الطفل إليها بمزيد من التركيز، تسأل عن الشيء الذي في داخلها. فتح يده، لتظهر ورقة نقدية مطوية بطريقة معقَّدة، استمر في فردها، خمسة جنيهات فاترة بفعل غسلها بالماء مرّات، من الممكن أنّها مُزِّقت من قبل وتم ترقيعها لتبقى على قيد الحياة مدَّة أطول. أحاطها بأصابعه كي لا يجرفها الهواء في طريقه، ترك عينيه تتأملها كطائر يراقب صغيره في لحظة تحليقه الأولى، استمر مسلطًا عينه عليها نحو نصف دقيقة، ثمّ دسَّها في جيب معطفه.

للمعطف ثلاثة جيوب، عن يمينه ويساره، وواحد داخلي فوق قلب نجيب.

تدافع الناس مثل كرات تنحدر من قمِّة جبل شاهق نحو بابي الأوتوبيس الذي وصل، أمَّا هو، فتمسك بخطة كل يوم، اختار موضعًا بينهم، خطوة واحدة بالخطأ في أي تجاه ستجعله تحت الأقدام،

ثمّ، في المكان الذي حدده، ترك نفسه تمامًا، غالبًا ما كان يُغمض عينيه أيضًا، ليتولى الناس مَهمَّة حمله والدفع به إلى الداخل.

اتَّجه نحو مقعده المفضل، المقعد الأخير في الصف الأيمن ناحية النافذة، كان مستعدًا لخوض معركة من أجل الظفر به. أرجع ظهره، لصق وجهه بزجاج النافذة، الكثير من الأشخاص ما زالوا على الأرض، موظَّفون وعمّال وأطفال ذاهبون إلى مدارسهم، يتدافعون في عصبية. جلس الطفل ذاته إلى جوار نجيب، هو وأبوه في مقعد واحد، لم يعرف نجيب هل جاء ذلك عن طريق الصدفة، أم أنَّ الطفل تعمَّد الجلوس إلى جانبه ليستمر في مضايقته.

ظلَّت عينه ثابتةً على وجه نجيب، ثم امتدَّت بكثير من التفحص إلى معطفه، لترصد رقعة في إبطه، كلَّما رفع نجيب يده أو حركها، كانت الرقعة تتضح، بان عليه إحراجًا من الشيء المُسيء الذي اكتشفه الطفل، شعر بالاختناق بسبب المتطفل الصغير، قرر إلهاءه، أخرجَ من جيبه هاتفًا نقّالًا قديمًا في طرازه، من الهواتف الأولى التي أنتجتها شركة (نوكيا). فتَّش في كل جيوبه، أخرج مفتاح شقته وعلبة مناديل ومنشورًا فيه إعلان عن وظائف، وكتاب صغير مطبوع عليه صورة امرأةٍ عابسة، في هذه اللحظة، سقطت منه سهوًا القطعة النقدية الوحيدة التي يمتلكها، الخمسة جنيهات البالية، ولسوء حظِّه لم يشعر

بسقوطها. وكانت فتاة جميلة، لا يزيد عمرها عن ربع قرن، بشعر أسود قصير لا يتعدى عنقها، ووجه مستدير ببشرة فيها حُمرة ينمو عليها النمش؛ تجلس إلى المقعد الذي أمامه، عندما شعرت بشيء يزحف على قدمها، فنزلت إليه لتجد القطعة النقدية، فأسرعت بحركة خفية إلى دسها في حقيبتها الصغيرة، ثم اعتدلت في جلستها كأنّ شيئًا لم يكن.

قدَّم ما في يده إلى الطفل، الذي كان يرفض، وينظر إليه نظرة تقليل وعدم اهتمام، فأعاد جميع أغراضه إلى جيبه في تبرِّم.

بدأ جامع التذاكر في تجميع ثمن التذاكر من الركَّاب، دفع كل واحد جنيهان، وأدخل نجيب يده في جيبه ليُخرج نقودًا، فتّش في كل موضع في ثيابه، لم يكن يملك سوى القطعة النقدية التي أخذتها الفتاة، أيقن ساعتها وقوعه في موقف مُحرج، اكتشفَ أنّه مُفلس، تلوَّى في مقعده من القلق، وتوقّف عقله عن ضخ الأفكار.

وبصفته يجلس في المقعد الأخير؛ لم يبق أحد لم يدفع إلا هو. استعد لملاقاة جزائه. يا ترى أي جزاء سيكون، فكَّر، هل سيتوقَّف السائق ويلقي به وسط الطريق، كيف سيبدو منظره أمام الركَّاب، سيقولون شحاذًا، أو محتالًا، هذا أقل شيء، أو يكون جزاؤه أن يتكوَّم فوقه الركَّاب ويضربونه!

نجيب لا يحب المشاكل..

وقف جامع التذاكر أمام وجهه، يُمكن التنبؤ بما يجول في خاطره من قسماته القاسية، سأل في ضجر عن ثمن التذكرة، كرر سؤاله أكثر من مرّة، احتالت نبراته من الرجاء إلى الوعيد، استمر نجيب في ضرب ركبتيه في توتِّر، لا يعرف كيف يتصرَّف، لا شيء من وجهة نظره، ينقذه، غير قول الحقيقة، سيتحدث بصوته الهادئ وكلاماته المحترمة الرقيقة، سيقول أنَّ نقوده ضاعت منه، قرر ذلك، وقبل البدء بأي كلام فيه مُصارحة، أحس بيد الطفل تتسلل إلى جنبه في خفاء وتلكزه، لم يلحظ أحد ذلك غيره، نظر بطرف عينه ليجد اليد الصغيرة تمتد إليه مغلقة. مدَّ يده إليها لتهديه جنيهان معدنيان، فخلَّص بهما نفسه.

بعض الناس نجد في وجوههم القبول فنود لو نُقسم عليهم ليكونوا لنا أصدقاء، رأى الطفلُ أنّ نجيبًا واحدٌ من هؤلاء الذين تقبلهم القلوب دون شرط، أو سابق معرفة، ونظرته من البداية لم تكن تطفلًا أو استفزازًا كما ظنَّها نجيب، النظرة أحيانًا تكون طلب صداقة.

شكر الطفلَ على شهامته، فأمدَّه الأخير بمعلومة هامة، قال إنَّه رأى الفتاة التي تجلس أمامه تنحني وتضع شيئًا من الأرض في حقيبتها، وإنَّه ممتلئ ريبة منها.

نظرت الفتاة بطرف عينها إلى الوراء، تسترق السمع، فحدجها نجيب بنظرة اتهام بالسرقة، ولأنَّه لم يكن في يده دليلٌ مؤكدٌ ضدها، لم

يجرؤ على تفتيشها بما قاله الطفل عنها، خصوصًا أنّه لما رأى مظهرها، ثوبها الأنيق وجمال خلقتها، أيقن أن هذا المظهر لا يدل على لصَّة، اكتفى بالنظرة المسيئة، وندم عليها أيضًا، رأى أنّه من الصحيح النظر إلى وجهها برقَّة وتأمُّل، وألا يعدُّها لصَّةً إلا إذا كان رآها تسرق، ربَّما الذي أخذته من الأرض شيئًا غير النقود، وإنّ بعضَ الظنّ إثم. لكن هل يمتاز اللصوص بشكل يُعرفون به، قسمات وجه أو ثوب بعينه، أو طريقة في المشي أو الكلام، أو حركة يؤدونها، كلما دلَّت ملامح الوجه على الرضوخ والاستكانة بَعُدَتِ الشُّبهات عن هذا الوجه الموصوف بالبراءة والأدب، الكُتُب التي تُوزِّع الصفات على الناس من ملامح وجوههم، هي في معظم الأحيان، كاذبة وظالمة، كم من خُبثٍ توارى في وجه نظنُّه بريئًا، وكم من عين نحسبها ماكرة وهي في الحقيقة صادقة وفيّة، الأفعال القبيحة فقط يجب أن تكون دليل الإدانة، وليس شيئًا آخر.

توقف الأوتوبيس ليأذن لبعض الركَّاب بالنزول، نزل نجيب معهم مودعًا الطفل الذي أصبح صديقه، وأثناء ذلك، لمح حافظة نقود على درجات السلَّم تدوسها الأقدام، فالتقطها، وراح يسأل الذين نزلوا قبله:

«هل ضاع منك شيء يا باشا».

«من فضلكِ تحققي من أغراضك».

«يا ناس، من ضاع منه شيء يأتني بأمارة ليسترده».

ربتت يد خفيفة على كتفه، التفت، وجدها هي، فتاة الأوتوبيس، ظهرت أجمل، مزيج من الجُرأة والرقّة يسبح في عينيها، شردت عينه هنيهة، لكن بسرعة هزَّ رأسه، فاق مما رماه به جمالها من سحر، سألها بأدب ورقَّةٍ عن غايتها، فقالت بثقة أنَّ الشيء الذي عثر عليه يخصُّها. سألها عن أمارته، قالت حافظة من الجلد لونها أسود، فيها أربعمائة جنيهًا، ورقتين، كل واحدة بمئتين، وإنَّها حافظة أبيها، رجل أصلع اسمه نعمان.

وجد النقود وبطاقة تدل على صدق كلامها، أعطاها الحافظة، فشكرته على إخلاصه، ثمّ منحته قطعة نقود ورقية على سبيل المكافئة، لم يرها حينها بسبب أنَّ الفتاة وضعتها في يده بإحدى يديها، وأعطته بالأخرى، بسرعة، بطاقة عمل أخرجتها من الحافظة، مكتوب عليها اسم صاحب الحافظة ورقم هاتفه ومقر عمله، وطلبت منه بذوق، الاتصال بصاحب البطاقة إذا احتاج إلى مساعدة، عملًا أفضل على سبيل المثال، وسيكون ذلك ردًا بسيطًا على أمانته.

غادرت في وقت قليل، بينما ظل الأوتوبيس في مكانه حتى نزول جميع الركَّاب.

فتح يده وفرد العملة النقدية، فكانت المُفاجأة التي أربكته، القطعة النقدية التي حصل عليها من الفتاة هي نفسها الخمسة جنيهات التي سقطت منه في الأوتوبيس! أدرك أنَّ الطفل كان مُحقًا فيما قال عنها، وأسرع يدور بعينه في كل ناحية باحثًا عن اللصة التي سرقته مرتين.

كانت قد هربت..

أخرج هاتفه، اتصل بالرقم المكتوب على البطاقة، ثوان مرَّت ثمّ حدَّثه صوتٌ ذكوري في الهاتف. في ذات الوقت، كانت عينه مسلَّطة على نافذة في الأوتوبيس، رجل كبير في السِّنِ، يجلس في المقعد الذي كانت تجلس إليه الفتاة اللصة، يلصق وجهه بالنافذة، ويضع هاتفه النقّال إلى جانب أذنه ويتمتم. شيء ما لفتَ نظر نجيب جعله يدخل إلى الرجل، ويقف أمامه، تيقَّن أنه الطرف الآخر الذي يتحدث إليه على الهاتف، وهو نفسه صاحب الحافظة التي سرقتها اللصة. كان جالسًا إلى جانبها، عرفت عنه كل شيء، ثم سرقته وهربت، فسقطت منها الحافظة ليجدها نجيب، ثمّ بسذاجة أرجعها إليها مرّة أخرى! حاول توضيح الأمر لصاحب الحافظة، صرخ الأخير واتهم نجيب بالسرقة. لم يكن سهلًا إقناعه، شمَّر الركّاب له عن سواعدهم، لم يستطع الطفل تقديم المساعدة هذه المرّة..

صوت من الأوتوبيس:

«اقبضوا عليه».

صوت آخر:

«لا يهرب منكم ابن الحرامية».

هرب مثل اللصوص وكثيرون من ورائه يحاولون اللحاق به.

***

الحوش، المكان الذي يذهب إليه نجيب كل يوم ليبدأ فيه ساعات عمله، مكان متَّسع يلفُّه سور طويل به ثلاثة أبواب، واحد صغير للأفراد واثنان كبيران يناسبان حجم سيارات النقل بجميع أحجامها، في الداخل جبالٌ من الزَّلط والرمل والسنِّ، وأطنان من الحديد والإسمنت، وعُمَّال موزَّعون كلٌ حَسَب عمله، منهم مهمته وزن الحمولة على ميزان ضخم، ومنهم من يعمل على ونشاتٍ صغيرةً يتنقلون بها من مكان إلى آخر، يرفعون بها الحمولة إلى سيارات النقل. ومنهم عمَّال المَقصِّ، قاطعو أسياخ الحديد، بمقص كبير شديد القوة أُعِدَ لهذا الغرض. وإلى الزاوية الواقعة في أقصى الحوش، ترتكز مصطبة حجرية تحت عريشة من الخشب، يجتمع عندها العاملون في أوقات الراحة التي يخطفونها خلسة، يشربون الشاي ويدخنون السجائر.

حركة البيع والشراء لا تتوقف، البضاعة التي تدخل في يوم، تُضاف إلى قائمة المبيعات لذات اليوم.

يعمل نجيب موظفًا في الحوش منذ سنوات، هو رجل الخزنة، لأنّه المسؤول عن النقود التي تدخل وتخرج من الخزنة الكبيرة التي

وراء ظهره، يبيع للزبائن ويُسجل ما باعه، وباقي زملائه يؤدون أفعالًا مشابهة من الجرد والحساب وكتابة التقارير.

خلفيته الهندسية، بحكم أنَّه تخرج في كلية الهندسة قسم اتصالات، أوجدت له عملًا إضافيًا في الحوش، كان صاحب الحوش يأمره بمراقبة الكاميرات والكشف عن أعطالها، ومتابعة كل ما يخص شبكة الانترنت، فيؤدي ما يُطلب منه بدرجة قصوى من الإخلاص، لكن براعته وحماسته في تلبية أوامر صاحب الحوش لم تكن من المعينات على زيادة أو علاوة، كلمة شكر جافة فقط هي كل ما يتحصل عليه، وعادة ما يقنع نجيب، هناك أشخاص يُمكنهم إقناعك حتى لو خالف الشيء طريقة تفكيرك، صاحب الحوش واحد منهم.

ألقى تحية الصباح على فرديْ الأمن الواقفيْن عند البوابة الصغيرة..

استوقفه أحدهما، ترجل به خطوات، همسَ في أذنه كي لا يسمع زميله، أراد خمسين جنيهًا سَلفًا ويردها بعد شهر، اكتفى نجيب بصمت معناه «ابحث لي معك عن سُلفة من فضلك» فعزز رجل الأمن رجاءه بموافقته على أيَّة زيادة يطلبها نجيب فوق المبلغ الأصلي. ربت نجيب على كتفه، ابتسم نصف ابتسامة، ثم دلف إلى الداخل دون كلام.

مرَّ بالساحة بسرعة، الذي يحدث اليوم حدث بالأمس وسيحدث غدًا، إلا إذا شاء الله غير ذلك، يحفظ وجوه العمَّال، ويحبونه، يلقبونه

بالرجل الهادئ، ويرسلون إليه التحيات كلَّما رأوه. لكنه يفضل ألا يقف لهم، لأنهم إذا فتحوا معه حديثًا فلن يخلص منهم أبدًا، نجيب لا يُحب الثرثرة، يفضل الكلمات القليلة التي تفي بالمعنى، كما أنَّه لا يحب سماع شيء عن مصائبهم وهمومهم.

في الصباح يكون الوقت الأنسب للثرثرة، يحكون عن يوم أمس وما قد يحدث اليوم وغدًا، يخرج من بينهم السياسي والاقتصادي والرياضي والشيخ الفقيه، يتكلمون بما يعلمون وبما لا يعلمون. وفي الظهيرة تتقد حماستهم، تتفجَّر همتهم وحميتهم، فينشغلون عن الكلام بالعمل، وفي العصر يبدأون بالكلام إلى نحو قليل، يتسللون في خفاء إلى المصطبة، يسألون عن الساعة، وينظرون إلى الشمس كم بقي لتغرب. وفي المساء، عند السادسة، وهو وقت مغادرتهم الحوش، ينتقون كلمة واحدة فقط يتكلمون بها إلى كل من يقابلونه، يختارونها قليلة الحروف، أو يكتفون بالإشارة باليد، أو بالوجه، لأنَّ أجسادهم تكون مرهقة جدًا، وعقولهم خاوية من الأفكار، إلَّا فكرة واحدة تبدو لهم، من جمالها وشدَّة تمنيهم لها، خيالية وغير معقولة، تتمثل في اللحظة التي سيكون كل واحد منهم في بيته، بين عائلته، بعد عناء يوم من الشقاء في خدمة صاحب الحوش.

في ركن من الحوش، يرتكز مبنى الإدارة، طابق واحد، تخترقه

طرقة طويلة تؤدي إلى صالة متَّسعة، يجتمع فيها أربعة موظفين على مكاتبهم، نجيب واحد منهم، وغرفة واحدة أكثر اتساعًا من الصالة نفسها، تخص صاحب الحوش. في سقف الصالة كاميرا مراقبة، مثبّتة على الأربعة في كل وقت، ومثلها في ساحة الحوش، لنقل كل ما يحدث وعرضه على شاشة أمام صاحب الحوش.

رجب وفوزي وحمودي، هم زملاؤه الثلاثة، رجب أكبرهم سنًا وأقصرهم طولًا وله صوت رفيع مثل جسده ووجهه. وفوزي كان ممتلئًا وكسولًا.

كان حمودي، الزميل الثالث، هو فقط من يدخِّن السجائر. قبل أسابيع، نجيب كان يدخن أيضًا، لكن منع نفسه عن ذلك بعدما ارتفعت الأسعار. لم يكتفِ بذلك، بل انقلب على المدخنين، اتهمهم بالأغبياء، لأنّهم يسمحون لسيجارةٍ ضعيفة أن تملأ فمهم بالسم، وتلوِّن شفاهم بالأزرق الداكن، لون الجثث المتعفنة، وأن تتغوط على أسنانهم، وتحرق أجسادهم من الداخل، مثلما تحرق نقودهم.

صاحب الحوش هدد حمودي بخصم يقسم ظهره إذا ما ضبطه يدخن سيجارة داخل المكتب، لذا إذا أراد التدخين، يطلب من نجيب الصعود إلى الكاميرا وإحداث عطل مؤقت بها، وبعدما يحرق سيجارته يرجع نجيب كل شيء إلى ما كان عليه.

وقف ميكانيكي الحوش، شاب صغير تحت العشرين في ثوب مرقَّع بالزيت والشحم، أمام مكتب حمودي، وهذا الأخير إذا أردنا وصفًا دقيقًا لهيئته، لقلنا: رأسًا أصلع، ووجهًا بلا ملامح، ورقبة قصيرة مركَّبة في كتلة عضلية ضخمة!

قال حمودي بنبرة تهديد (دائمًا صوته يحمل تلك النبرة):

- «قلتُ خمسين جنيهًا لا ينقصون مليمًا واحدًا، متى ستدفع المتبقي عليك! أعطني موعدًا محددًا».
- «غدًا، لكن ابحث لي عن حذاء مقاس (43) أحضر به زفاف أختي، وأكرمني في السعر».
- «ألف مبروك..».

بحلق حمودي في ثوب الميكانيكي، ثم واصل كلامه:

- «وهل ستحضر زفاف أختك بهذا الثوب المتسخ!».
- «اشتريتُ منكَ القميص من أجل ذلك».
- «والبنطلون يا رجل!».
- «حسنًا ابحث لي عن بنطلون مع الجزمة».
- «هكذا يكون الكلام».

انصرف الميكانيكي، جاء نجيب ووقف في مكانه، انحنى نصف

انحناءةٍ على مكتب حمودي، ثم حدَّثه بوجه مضطرب، بأنّه لن يسامحه أبدًا..

- «لأنّكَ يا حمودي بعت لي معطفًا قديمًا باليًا، رائحة الموت تفوح منه».

انتصب حمودي في مكانه، خلع السترة التي يرتديها، ظهرت عضلات ذراعيه، قصد تهديد نجيب بهذه الطريقة، فطلب منه نجيب بنبرة الذي يشعر بالذنب، وبخفة ظل، أن يرتدي سترته ويجلس إلى كرسيه!

قال حمودي:

- «هذا المعطف الذي على جسدك أنتَ اشتريته مني وكنت تعرف أنّه مُسْتعملٌ، لم أكذب عليكَ في شيء، بعتُ لكَ شيئًا على قدر مالك، فليس من حقك لومي».
- «لكنه لا يستحق ما دفعته، وكبير جدًا، وممتلء بالرقع، ومهما أغسله لا ينظف».
- «إنّه من الصوف النادر يا زميل».
- «صوف نادر! هل تهزأ بي يا حمودي بيه، أشعر أني أرتدي بردعة حمار».
- «هل تصدقني إذا قلتُ لكَ إنَّ رجلًا ليلة أمس سألني عنه،

أراده هو بالذات، كان رجلًا أنيقًا، قلتُ له إنِّي بعته، قال لي متأسفًا على ضياع المعطف منه: من هذا المحظوظ الذي اشتراه»

- «محظوظ! سأقول إنَّك لم تقصدني بهذه الكلمة، خذه وهات معطفًا غيره».

- «وما أدراني هل يعود الرجل مرَّة أخرى أم لا، قد يزورك في أي وقت هنا أو في بيتك!».

- «يزورني؟ هل أعطيته عنواني!».

- «هو من سألني عنك، ثم لمَ القلق؟ عندما يـأتيك يمكنك إعادة بيع المعطف له بسعر أعلى».

- «حسنًا، كنتُ قد قررتُ إلقاءه في الشارع إذا رفضت استرجاعه، سأصبر لعل صاحبك هذا يحضر».

- «اعذرني يا زميل، الذي يباع لا يُسترجع، هذه قاعدة تعرفها عني».

- «أحفظها، وأحفظ عنك أنَّك جشع تعبد القرش».

- «لا أربح مثل صاحب الحوش على الأقل».

دنا نجيب أكثر من حمودي ثم قال وهو يُلقي الكاميرا بنظرة خاطفة:

- «اشكر ربّك أنّها لا تنقل له الصوت مع الصورة».

خرج صاحب الحوش من غرفة مكتبة، في وجهه قلق وتعجُّل، يرتدي عباءته الزرقاء الثمينة، وحذاءه الأسود الطويل، وفي معصمه تظهر ساعته الذهبية التي تلمع كالشمس. وبسرعة، رمى حمودي سيجارته في الأرض، فوقعت عند قدم نجيب.

توسَّط صاحب الحوش مكاتب الأربعة، وبدا لهم أنّ رائحة الدخّان قد وصلت إلى أنفه، اقترب من نجيب الذي يجلس على مكتبه يحاول إخفاء سيجارة حمودي المشتعلة أسفل حذائه، شعر أن حمودي ورَّطه في مشكلة كبيرة، بلع ريقه، رفع صاحب الحوش رأسه إلى أعلى، حيث الكاميرا، ثم قال لنجيب: «عطلانة يا سي البشمهندس، ألق عليها نظرة..».

وقف نجيب مستجمعًا بعضًا من جرأته، قال بصوت متكسّر:

- «إجازة يا حاج».
- «نعم!».
- «خمس وعشرون يومًا من العمل دون انقطاع، لم أحصل على إجازتي».
- «معك حق، لبدنك عليكَ حق، متى تريدها؟».
- «غدًا يا حاج».

- «لا، غدًا لدينا عمل كثير»
- «سينتهي الشهر بعد خمسة أيّام، ولم أحصل على إجازة، وكل يوم تقول نفس الكلام».
- «إذا لم تحضر غدًا، فأنتَ بذلك تقدِّم استقالتك، وأنا أقبلها مُقدمًا».

دلف صاحب الحوش إلى الخارج..

يقول العمَّال فيما بينهم، إنَّ وجهه احمر، لأنّ أمَّه كانت تُرضعه عصير الفراولة، لذا طفح ذلك على وجهه، ويقولون أيضًا، إنَّه يحمل في يده على الدوام ثلاثة هواتف نقَّالة باهظة الثمن، لأنّه مُصاب بداء الهاتف، وهو مرض خلقوه بخيالهم ليناسبه. الكذب والخرافة يكثرون على الأشياء التي ينقصها الوضوح، ولأن صاحب العمل رجل غامض في معظم الأحيان، متغيِّر الوجه والمزاج، ليس عليه اتفاق من ناحية الخير أو الشر، لذا تكثر في حقه الأحاديث وتختلف، لكن نجيب يثق في أنَّه سيّد أهل الشر ورئيس استغلالي العالم!

تكلَّم رجب شارحًا، بأنَّ صاحب الحوش لديه مشكلة مع زوجته، ربَّما تقف له في الخارج تطلب الطلاق، وهي سبب القلق الذي ظهر على وجهه، سأله حمودي عن أيَّة زوجة يقصد من أربعة، فأوقدا حديثًا في الغرفة، تحدَّثا عن مشكلاتهم مع النساء، وتدخل نجيب عندما سمع أحدهم يتفاخر بضربه لزوجته.

قال نجيب:

- «اسكتوا يا بهوات، اسكت أنتَ بالذات، تضرب زوجتك! كيف؟ ولماذا! لأنّك أقوى منها، بغل ما شاء الله وهي قطّة ضعيفة! يا عم حبَّها، أعطها قلبك يا بغل بيه وبعض النقود وكفى..».

- «وإذا لم يكن معي ما يكفي من النقود».

- «المرأة قلبٌ ونقود، وأنتَ إذا أردتَ كسبها، فعليك بالاثنين، لا تقلق، فمن رحمة الله بنا أنَّ أغلب النساء تُسعدهم نقود قليلة في اليوم الواحد! نحن نعمل من الصباح إلى المساء لنأت لهن بالنقود، ثم علينا، في الساعات القليلة المتبقية من اليوم، أنْ نبتسم، ونقول كلامًا غزليًّا جميلًا، لإرضاء قلوبهن، إننا بكل بساطة خُلقنا لإرضائهن، وعلينا تقبُّل هذه المهمة».

قال فوزي بنبرة لئيمة:

- يا سلام يا نجيب، كلامك حِكَم، لكن قُل لي، هل تعرف الآية التي تقول: ﴿**يَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ**﴾ [الصف: 2].

سكت نجيب مكتفيًا بتسديد نظرة ممتلئة بالشتائم إلى فوزي.

قام حمودي في عجلة إلى سيجارته التي ألقاها أسفل مكتب نجيب،

كان نجيب قد فركها بحذائه، جمع ما تبقى منها في جيبه، لم تكن سيجارة عادية، حمودي يدخن السجائر وأشياء أخرى يُحرِّمها القانون. مال على أذن نجيب، أخرج هاتفه، استعرض أسماء كثير من النساء، يعرف نجيب أن كلهن ملتويات الخُلُق، ويعرف أيضًا، أنّه إذا أشار بإصبعه على أحد الأرقام الظاهرة على شاشة الهاتف، فإن حمودي، سيرسل صاحبة الرقم، إلى شقته هذه الليلة..

حمودي، قوَّاد الحوش..

لم يختر نجيب أي رقم، اختار من قبل أرقامًا، لكن هذه المرّة لا..

***

في المساء، ارتاد مع زملائه منزل عامل في الحوش، منذ يومين، التوت قدمه أسفل جسده في حادث أثناء العمل، ولزم ذلك بقاؤه في فراشه شهرين، أصيبت قدمه بكسر بالغ.

كان ممددًا على سريره في حال من البؤس التام، وكان طفلاه، أكبرهم خمس سنوات، يلعبان حوله في الغرفة، قدَّمت زوجته واجب الضيافة وانصرفت.

قعَدَ نجيب عند رأس العامل المصاب، سأله إذا كان صاحب الحوش زاره أم لا.

قال العامل، إنَّ صاحب الحوش زاره، ومنحه 350 جُنيهًا، وأثنى على صاحب المعونة. لم يُعجبْ نجيب بالكلام، قال: إنَّ صاحب الحوش مستغل وأبخل خلق الله، وبدا أنَّ وراء زيارته ملعوب. قاطع حمودي كلام نجيب، مخرجًا ظرفًا مغلقًا من جيبه، قالَ إنَّ صاحب الحوش، عندما عرف بأمر زيارتهم، أعطاه الظرف وأمره بتسليمه إلى العامل.

فتح الأخير الظرف، انهمك في قراءة الورقة التي بداخله، وضع وجهه كله في الورقة، أطال النظر بشيء من الذهول، ترك ما في يده وظلَّ شاخصًا بصره في حائط أمامه، صمت اعتراه، المسافة بين عينيه كانت تتسع وتضيق في سرعة، قرأ لتوه خطابًا يفيد بعزله عن العمل، استغنى صاحب الحوش عن خدماته إلى الأبد..

العمل في الحوش يبدأ في السابعة صباحًا وينتهي في السادسة مساءًا، ولحساب الوقت الذي يقضيه نجيب في العمل، حسابًا دقيقًا، بذات الطريقة التي يحسب بها الرصيد الداخل كل يوم إلى خزينة الحوش، سيكون هناك ساعة ونصف إضافية، هي وقت الاستيقاظ وارتداء الملابس والتهام أي شيء، ومن ثمّ الذهاب إلى محطّة الأوتوبيس، والانتظار، وهو الوقت الذي يقطعه الأوتوبيس ليصل إلى مكان العمل، وساعة أخرى تُقضى في الطريق أثناء العودة.

أرباب العمل لا يريدون الدفع لمن يعملون لديهم مقابل هذه الأوقات، يقولون إنّها لا تدخل ضمنيًا في وقت العمل، وأنّهم لا

يتحصلون على نفع منها، طريقتهم في الحساب مجحفة، كل دقيقة تُقضي في عمل ينبغي أن يكون لها ثمن، الذين كبروا يعرفون لماذا! بعض أصحاب العمل مستغلون، يتمنون لو يكف العامل عن المطالبة بأجره. محدودو الدخل من الموظفين والعمَّال والفلاحين أكثر من يصبهم نزيف العمر، يكبرون فجأة، وتضيع أحلامهم فجأة، يبيعون أعمارهم بثمن بخس، وهم عند بعضهم بقرة تعيش لتدر اللبن وفي النهاية تُذبح، يُضربون بالسواط بلا رحمة ليركضوا إلى الحياة الكئيبة والموت السريع. إنَّ أول ما على الرجل النبيل قوله إذا ما أخبروه أنَّ مصنعه الوحيد أكلته النار: أنقذوا العمَّال.

وبهذه الحسبة التي وصلنا إليها، يكون مجموع الساعات التي يقضيها نجيب يوميًا في خدمة صاحب الحوش، ثلاث عشر ونصف الساعة. أما عن العطلات، فمن حقه يومان فقط كل شهر، دون أن يكون من حقه اختيار يومٍ محدَّدٍ، وليس في كل السنة عطلات رسمية غير يومين، واحد في العيد الكبير والثاني في العيد الصغير. وأجره، بعد الزيادات، (1150) جنيهًا كل شهر. عدد الساعات التي يقضيها في الخدمة (8,136) من ساعات السنة التي قدرها (8,760) ساعة، فيكون مجموع راتبه في كل هذه الساعات(13,800) جنيهًا. يدفع منهم (5,400) في السنة إيجارًا للشقّة، ثم بما تبقى، ينبغي عليه أن يحيا إلى السنة التالية!

يعرف أنّ صاحب الحوش يدخل جيبه يوميًا من عمل الحوش، ما يربو عن (60) ألف جنيهًا صافية، هذا في فرع واحد مما يملك، ووردية واحدة، العمل في الحوش يكون في الليل والنهار.

قال فوزي للعامل المطرود:

- «أنت الرابح، إنَّها الفرصة التي ننتظر شجاعتنا لنفعلها».

وقال حمودي على سبيل المواساة:

- «بسيطة يا زميل، غدًا تجد عملًا آخر، ربُّك لا ينسى أحدًا».

واكتفى رجب بتمتمة حزينة.

قال زميلهم المكلوم:

- «هذا الجِلفُ الأَزْعر دمَّر حياتي، أيُّ خُلُق يقول بالذي فعله.. أنا متزوج ولدي أطفال، من أين سأنفق على عائلتي، ولا يُمكنني إيجاد عمل قبل أن أُشفى، وسأبدأ أبحث من جديد، يا للمصيبة التي وقعت فيها».

أمّا نجيب، فاحتفظ بكمٍّ غير محدود من الشتائم والعبارات غير المهذَّبة، كلُّها في حق صاحب الحوش، احتفظ بها في عينيه وتعابير وجهه المتّقدة نارًا.

***

3

«جارٍ صيانة الأسانسير.. غدًا ينتهي كل شيء، شكرًا على تفهمكم».

اليافطة المُستفزِّة مرَّة أخرى، في مكانها المُعتاد، تُمارس هوايتها في الكذب، يسكن نجيب في الطابق الرابع في عمارة مكوَّنة من ستة طوابق، منذ أن استأجر شقته، وهذه اليافطة الخشبية الصغيرة التي يغمرها التراب، وينسج حولها العنكبوت عشَّه، في مكانها، مُثبتةٌ في باب المصعد الكهربائي الذي أكله الصدأ.

رفع رجله إلى الأمام، صعد درجتين، وقبل بلوغه المنعطف، قبض بعصبية على سور السلَّم، اندلعت في أعماقه حماسة تحثُّه على الذهاب إلى اليافطة الكاذبة ليسحقها، لم يحتمل مزيدًا من الزيف والتدليس، ماذا لو قالوا سنصلح المصعد بعد سنة، أو لن نفعل أبدًا واضربوا رؤوسكم بالحائط، ولماذا دفع، لأبي حنَّة، بوَّاب العمارة، ثمن إصلاحه مرَّات.

نزل درجات السلَّم في غلٍّ، اتجه نحو اليافطة، بدأ ينزع، يشدُّ بقوة، مثبَّته بإحكام، جاهد، احتاج مزيدًا من العناد والإصرار ليتم مهمته.

«أنا أو أنتِ في العمارة يا روح أمّك».

تغلب عليها، رماها في الأرض كالذي يرمي شيطانٌ بإيمانه.

شعر بارتياح، صعد السلّم يهز رأسه ويُدندن بأغنية أجنبية حماسية..

مرَّ بعيادة طبيب الجلدية، في الطابق الثاني، كانت مفتوحة كعادتها، لكن مزدحمة، دائمًا لا يكون هناك مرضى إلا واحدًا أو اثنين في أعلى تقدير، ما سر الازدحام، طفقَ إلى الداخل ليعرف، نظرات المرضى تلاحقه، لا يحب زيارة طبيب جلدية بسبب هذه النظرات بالذات، يبحثون عن أثر لطفح جلدي في وجهك ويديك، وإن لن يجدوا، يستخدمون خيالات قذرة للبحث أسفل ملابسك.

باح له التمرجي بالسر، الكشف اليوم مجاني.

ومع أنَّه واثق من سلامة جلده، لكنَّه رفض إهدار الفرصة، فلتكن زيارة من أجل الوقاية، قطع تذكرة، مال على التمرجي بكلمات راجية ليدخله قبل الواقفين، ترجَّاه بكلمات مثل «نحن جيران» «الجار للجار»..

أصبح في غرفة الطبيب، خلع معطفه وكل ملابسه، وقف يرتعد من البرد، تفحص الطبيب جسمه.

- «أنتَ سليم يا جاري العزيز».
- «أشكرك يا دكتور، سأعود لاحقًا من أجل إعادة الكشف الذي سيكون مجانًا أيضًا، أليس كذلك».

- «ها! كما تريد».

وهكذا ضمن زيارة مجانية أخرى.

أصبح أمام شقته..

حشر المفتاح في قفل الباب، ظلام، تحسس زر الإضاءة خلف الباب، ضغط، شقة متواضعة، صالة صغيرة، وغرفتان وحمام ومطبخ، في الصالة كنبة واحدة مستندة إلى الحائط، وفي الوسط طاولة خشبية مستديرة أمامها كرسيَّان. تحت نافذة الصالة التي تطل على الشارع، يرتكز كوميدينو، مرصوص فوقه بعض الكُتب.

وضع معطفه على الطاولة، تناول منه كتابًا، أرخى جسده المتفكك على الكنبة واستمر ناظرًا في إحدى الصفحات، لم يستمر إلَّا دقيقة، ألقى الكتاب على الكنبة، ليس من الذين يملون من القراءة، قرأ هذا الكتاب مرّات، والكتب التي على الكوميدينو أيضًا قرأها، كلُّها تتحدَّث عن النساء، أحيانًا يرمي نظرات خاطفة على السطور، يريد بذلك سطرًا فاته سهوًا ليقرأه، وفي كل مرة لا يجد.

قام إلى الثلاجة، تتخذ ركنًا في المطبخ يناسب حجمها الصغير، وحجم المطبخ الصغير أيضًا. أحضر علبة سلمون لم يتبق فيها إلّا قَدر معلقة من السمك المطحون، شدَّ رغيفي خُبز من فوق الثلاجة وعاد بطعامه إلى الصالة حيث الطاولة، بدأ يأكل بشراهة.

اتجه بعينه إلى صورة معلَّقة على الحائط، تجمعه بفتاة يُحيطُها بذراعيه، وجهان سعيدان، مصَّ شفتيه وشرد مهمومًا، ثمّ أخرج هاتفه، بحث عن رقم، اتصل..

لم يُجبه الطرف الثاني، اتصل مرة أخرى دون فائدة.

ارتدى معطفه، غادر، وصل إلى شقة أعلى مرتبة في السلم الاجتماعي من شقته، طرق الباب، فتحت له امرأة تكبره بسنين كثيرة، نظرته في ضجر، ثم حاولت رسم ابتسامة. قبل شهور، كان هو وسلمى زوجان، استمر زواجهما سنة واحدة لا أكثر، صحيح أنّها تأكل اللب بقشرته، وتضع السمكة مرّة واحدة في فمها فتهضمها بعظمها، وتغير من الفتيات الصغيرات اللاتي لم تصلن إلى سن المراهقة بعد، وفاشلة في الطبخ، لكنَّه تعلَّق بها، وأحبها من قلبه، يقول إنَّها طيّبة، وهذا سبب يكفي ليجعل رجلًا يحب امرأة.

أدخلته أمَّها، انتظر في غرفة الانتظار دقائق قبل أن تحضر سلمى، فتاة صارمة الملامح، تغطي عينيها نظارة طبّية، وتبدو بوجهها المستطيل وسُمرتها، مع شعرها المتجعد المصبوغ باللون الأصفر، مثل رسمة كرتونية لساحرة شريرة على غلاف مجلة للأطفال.

- «يُمكننا إعادة التفكير في حياتنا معًا، الناس يتخاصمون ويتباعدون ثم يعودن أحباء، و..».

- «هل تتحدث بجدية! تريد أن نرجع.. أنا لا أسميِّ ابتعادي عنك طلاق، أسميه هروب».
- «هروب!».
- «قلتُ مرّات يا نجيب، إنَّ استمرارك موظفًا في الحوش، عند الرجل الذي يمتص دمك ويستعبدك، معناه طلاقنا، لكنك أصريت على موقفك، لم تسمع لي، قُل لي من فضلك، أيّة فتاة هذه التي ترضى بالحياة معك، أنتَ رجل مهذَّب وطيِّب، لكن تتقاضى مرتبًا بالكاد يكفيك وحدك».
- «كان عليكِ التحمُّل حتى تتحسن الأحوال، كنتِ تعرفين كل شيء عن عملي قبل موافقتك على الزواج، لم أرغمكِ».
- «رأيتُ فيكَ طموحًا أعجبني، قبلتُ زواجك بأثاث مستعمل، وشقَّة قديمة متصدِّعة، قبلتُ بذلك رغم رفض أهلي، وعدتني أنّك ستبحث عن عمل بشهادتك، وصدقتك، صديقاتي وأقاربي كانوا يحسبون أنّك تعمل مهندسًا في شركة كبيرة، كنتُ أُخفي عنهم عملك الحقيقي، ثم إني، لم أجد الدافع الذي يجعلني أضحيِّ براحتي وعُمري معك، تُرى ما الذي يدفعني إلى هذا الجنون!».
- «تُسمينَ العيش معي جنونًا! حسنًا، لكن كان من الممكن أن يكون الدافع هو الحب، أو طفل».

- «تتحدث برومانسية، أشكرك من قلبي، أعرف أنك كنت، وربما لم تزل، تحبني. أسلوبك الهادئ المليء بكلمات تفوح منها رائحة العطر الرومانسي، قد يكون ميزة كبيرة طالما أحببتها فيك، خصوصًا على الفراش، لكن هذه الطريقة كارثة إذا أردت مواجهة الحياة، هل سيجعلنا الحُب نجد ثمن الطعام؟ ها؟ أمَّا عن الطفل، فالحمد لله أني لم أسمح بذلك».
- «هل قُلتِ (تسمحينَ بذلك!) قلت لي من قبل: إنَّ تأخر الحمل خارجٌ عن إرادتك، كنتِ تكذبين يا سلمى، تعلمين أني كنتُ أنتظر طفلًا منكِ، لم أكن أتخيل أنَّك بهذه القسوة».
- «الذي لا يستطيع إطعام زوجته لا يستحق منها طفلًا، كيفَ كنتَ ستنفق على فرد جديد في عائلتك. تفهمني يا نجيب، خذ الأمور بعقلانية، يجب أن تنساني، وأن تبارك لي، سأتزوج قريبًا».
- «بارك الله لكِ، لكن تأكدي من عمله قبل كل شيء».

عندما أصبح في الشارع، أخرج هاتفه واتصل بزميله حمودي، طلب منه إرسال امرأة من معارفه إلى الشقَّة ليقضي معها ليلة ساخنة، سيدفع له في الصباح، اشترط أن يكون الأمر سرًا بينهما مثل كل مرَّة، شدد عليه في ذلك، واشترط مواصفات في المرأة التي يريدها، هي نفسها مواصفات طليقته سلمى! يعرف أنَّ حمودي لن يجد رقم سلمى على

هاتفه ضمن قائمة الساقطات، لكن سيجد امرأة تشبهها، تتألم بصوتها، تبكي بعينيها، ثمّ تطلب الرحمة ولا يُغفر لها..

عندما يكون الانتقام لذيذًا!

***

في الصباح، عندما فتح عينه على صورة لسلمى معلقة في حائط غُرفته، شعر أنَّها تُخرج له لسانها وتغيظه، لأنّه رغم انتقام الأمس، لم تزل تسكن رأسه وقلبه.

تذكَّر كلامها المستفز، واعترافها بأنَّه لم يكن في حياتها سوى ذكر في فراش، أوجد لها مكانًا مقدَّسًا في أعماقه لا يدخله إلا هي، لكن، أحيانًا، بالنسبة إلى شخص تريد كسبه، يكون توفير رصيد في هاتفه، أفضل من أن توفر له مكانًا في قلبك.

من الطبيعي أن يألم لفقدانه المرأة التي أحبَّها، الأصعب على رجل من خلع أسنانه دون تخدير أن تُغادره امرأة يحبها دون مقدمات. أوجعه أن أعطاها عِشقًا نقيًا صادقًا لم تكن له مُقدِّرةً ولم يسترد حتى جزءًا يسيرًا منه. ثم، قصدت به أفكاره طريقًا آخرًا غير البُكاء على المرأة التي أحرقت فؤاده، أن يطردها من عقله إلى الأبد، وينزع ما تبقى منها في قلبه.

جمع كل الصور التي تجمعهما معًا، بكل ما تحويه من معان، في الصالة اثنتان، وفي غرفة النوم واحدة. لم يتبق لها أثر في شقته، ومع الأيّام، لن يبقى لها أثرٌ في ذاكرته أيضًا، وبتصميم وإيمان من أعماقه بأن كرامته فوقَ كل اعتبار، حتى الحب، جعل من سوء تصرفها معه ممحاة تمحو كل ما كان بينهما.

كدّس صورها في حقيبة رياضية كبيرة، حملها في يده، وأغلق باب الشقة خلفه.

قابله على السلَّم أبو حنَّة، بوَّاب العمارة، رجلٌ كبير أسمر ونحيل. عرض عليه مساعدته في حمل الحقيبة التي كانت ثقيلة، شكره نجيب موضحًا أنّه لا يحتاج مساعدةٍ.

لام أبو حنَّة نجيبًا لأن امرأة ملتوية الخلق زارته ليلة أمس وخرجت من شقته بعد ساعتين وخمس عشرة دقيقة، أبو حنَّة العين التي ترصد كل شيء بدقَّة في العمارة.

أعطى لأبي حنَّة مفتاح الشقَّة وقليلًا من النقود كما كل يوم.

من العادة، أنّ أبا حنَّة يصعد إلى الشقة بعدما يغادر نجيب، يشتري الخُبز وشيئًا يسد نجيب به جوعه عندما يعود من الحوش في المساء. أحيانًا، أو هو الأغلب، يكون هذا الشيء «علبة سالمون» تبقى لأيَّام، أو «صحن بصارة» من يد زوجة أبي حنَّة، التي تُشبهه كثيرًا. أو غير ذلك

مما فيه خِفَّةً وقلَّةً في الثمن، ويكون له ما تبقى من النقود التي أعطاها إيّاه نجيب في الصباح.

على بُعد أمتار، في مكان يُلقي فيه الناس قمامتهم، ترك نجيب الحقيبة.

رآهُ أنسب مكان يُمكن أن تظل فيه أغراض امرأة مثل سلمى.

«اذهبي بلا رجعة».

ودَّع بذلك المرأة التي كانت زوجته، شعر بدم طازج مُختلط بالنشوة يجري في عروقه.

مرَّ به أشخاصٌ يهرولون بوجوه مفجوعة إلى قارعة الطريق، تبعهم بشيء من الفضول.

فلاَح هَرِم في جلباب بسيط، ترسم التجاعيد المحفورة في وجهه، ومثلها في كفيه ورجليه الحافيتين، تاريخًا متأصلًا من الكلل والمشاق، ملقى على رصيف، يتلوى في اضطراب وتشنِّج. لم يستطع أحد من المتجمهرين حوله فهم شيء من همهماته. يفتح عينه مبحلقًا، ويضع يده على قلبه في كل الأوقات، كأنَّه يريد حث قلبه على ضخ الدماء بشيء من العدل في جسده الهزيل. صاح نجيب في الناس، أين سيَّارة الإسعاف، قالوا: إنهم اتصلوا بها منذ ربع ساعة، ربما توقف قلبها في الطريق وتحتاج إلى من يُسعفها.

في لحظة، سقط جسد الرجل على الرصيف، مثل جثة لا حول لها ولا قوة، كل الدلائل النظرية، على وجه التحديد، تُجزم أنّه فارق الحياة. لذا، في أقل من دقيقة، انصرف الناس عنه، أو بلفظٍ أدق، فروا هاربين.

لم يبق سوى نجيب، شعر بهمس داخلي يحثه على الثبات والجرأة وسمِّو الخصال، شقّ جلباب الفلّاح كاشفًا عن صدره، وضع يده على قلب الفلاح، عرق غزير، سخونة مُرتفعة وخفقات مضطربة، زعق في الوجوه الشاخصة حوله:

«حيّ، حيّ، قلبه ينبض، أين الاسعاف يا خلق، أين ابن الحلال يأتنا بسيارته، كلكم أموات؟ ها؟».

تدخل شاب بسيارة ربع نقل للمساعدة، رفع نجيب الفلّاح الفاقد الوعي إلى صندوق السيارة، وصعد معه.

بعد وقت، توقّفت السيارة في الساحة الخارجية للمستشفى، ترجل مع السائق إلى الداخل، قال لأول ممرضة قابلته أن معه رجلًا في وضع خطير في صندوق السيارة، ويحتاج إلى مساعدة، تحدث إليها بلهجة مهذّبه راجية، وصوت ما ارتفع وصار مدوّيًا إلّا لما قالت له، بلا مبالاة:

«من فضلك أحضر من معك بنفسك، جميعنا هنا منشغولون».

وتجنبًا لغضبته التي كادت تبطش بالممرضة، انتهى كل شيء في ثوان.

تقرير الحالة «تشنج وهبوط في الدورة الدموية، وصدمة عصبية حادة، غير أنّه مريض بالسكري ويحتاج إلى حقنة دواء في أقصى سرعة».

كان لم يزل نائمًا في سريره الطبي عندما اقترب منه نجيب، بدأ يشعر بتحسّن..

- «كيف حالك يا رجل يا طيّب».
- «بخير يا دكتور».
- «لستُ طبيبًا، أنا الذي جاء بك إلى هنا».

قال بصوت مكتوم:

- «سرقوني ولاد الحرام، ليتهم يشعرون بالنار التي تغلي في عروقي، يظنون أنّ الله غافل، لا والله ليس بغافل عمّا فعلوه».
- «ماذا حدث يا حاج».

سحب الفلاحُ شهيقًا وحبسه في صدره، اعتدل قليلًا في سريره ثم قال بصوت متقطِّع مشحون بالأسى:

- «كل شهر أذهب إلى البنك الزراعي لأقبض معاشي، ومعه معاش سبعة من الفلاحين «الغلابة» أوكلوني بصرف معاشهم. لكن ولاد الكلب انتظروني أمام البنك وسرقوا المال. ألفان من الجنيهات، ماذا سأقول لأصحابها، كيف أرد أموالهم».

قبض بيده على جلبابه، بدأ يشدُّه بعنف، كأنَّه يحاول نزعه عن جسده أو تمزيقه، بدا متشنّجًا مرّة أخرى، قال ببكاء مكتوم:

- «كيف أردُ حقوقهم؟ أنا على باب الله، شغَّال بالأجرة يا أستاذ، يعني فلَّاح باليومية. أبيع الجاموسة التي أعيش على رزقها، أم أمد يدي للناس، لا حول ولا قوة إلا بالله، عليه العوض ومنه العوض، يا رب رفعت شكاي إليك، يا رب أنتَ المنتقم».

ثم سأل نجيبًا، بصفته المرافق له من البداية، بلهجة جافة، عن الشخص الذي مزَّق جلبابه، فأدار نجيب ظهره وغادر في صمت.

وقتما دخل شقته في المساء، مُنهك القوى، يتلمَّس أقرب طريق يصل به إلى الكنبة، ليريح جسده المُرهق وينعم بدقيقة الراحة المعهودة، لمح بطرف عينه غريبًا في شقته، أو غريبة على سبيل الدقَّة، حقيبة تلتصق بالباب، حقيبة رياضية.

لم يرها قبل اللحظة..

تُشبه الحقيبة التي ألقاها في الصباح، لكن ليست هي، هذه سوداء والأخرى رمادية، وهذه أكبر حجمًا، ومغلقة بقفل صغير.

وضعها على الطاولة، كانت ممتلئة، هرش رأسه، تساءل في نفسه عن الشيء الذي بداخلها، وكيف وصلت إلى شقته من البداية!

وقف على السلَّم ينادي أبا حنَّة، ولمَّا حضر، سأله عن الحقيبة، لا أحد يدخل الشقة غيره، قال أبوحنَّة شارحًا، إنَّه وقف في الصباح مع المتفرجين يشاهد الفلَّاح المتشنج، ورأي نجيبًا أثناء ما كان منشغلًا بالفلَّاح إلى أن غادر به على ظهر السيارة. وأثناء ذلك، ظهرت أمامه الحقيبة، ملقاةً بين الأقدام ولا أحد يهتم بها. فتذكَّر أنه رأى نجيبًا يغادر الشقة بحقيبة، فظنَّ أنها هي التي أمامه وقد ضاعت من نجيب عندما انشغل في إسعاف الفلَّاح، فحملها إلى الشقَّة.

ودَّع أبا حنَّة..

أغلق الباب..

أحضر من المطبخ جاكوشًا، دقّ دقتين على القفل الصغير، انكسر في الثالثة.

فتح الحقيبة..

لم يكن مصدقًا عينه، اعتراه صمت وتحيُّر وذهول، الحقيبة ممتلئة بال..

احتاج وقتًا ليقتنع، كاد يكذِّب عقله فيما يتعلَّق بإدراكه للأشياء.

الحقيبة ممتلئة نقودًا..

نقودًا حقيقية، كانت رُزَمًا كثيرةٌ..

فرك عينه، أفلت يده من الحقيبة، وقف في مكانه، ثوان من الجمود والشرود، تلتها ثوان من الحركة السريعة في أنحاء شقته مثل تيَّارٍ كهربائي، كان مجنونًا بحق.

سَرى في أعماقه ضَربٌ من المشاعر تضرب بعضها بعضًا، ألف رجل غبي يتجادلون في عقله، كل واحد متمسِّك برأيه، وفي أياديهم سكاكين حادة ملطخَّة بدماء بعضهم.

أفرغ الحقيبة كلها على الطاولة فامتلأت وفاضت وسقط بعض مما فيها على الأرض.

شعر بالحر، سال العرق من وجهه، خلع معطفه وألقاه على الكرسي الذي أمام الطاولة، شمر عن ساعده.

فكَّر في عد النقود، بدأ، لكن وجد الأمر سيكون مرهقًا جدًا، لا يمكنه إتمام ذلك في ساعة، أو حتى يوم، لذا أرجأ الفكرة إلى وقت آخر، إلى وقت يكون فيه قادرًا على التفكير، واتخاذ قرار في مصير الحقيبة المجهولة، التي سقطت عليه من السماء كمائدة المسيح.

نظَّم أنفاسه المتوترة، جلس إلى الكنبة القريبة تاركًا عينه مسلطة على الطاولة.

هذه النقود كفيلة بجعله ثريًا، أغنى من صاحب الحوش نفسه، يمكنه فعل أشياء كثيرة، السكن في شقة على النيل، وشراء سيارة حديثة، وملابس، و...

خلع حذاءه المتسع، وجوربه الممزق.

جلس على الطاولة في هيئة المتأمِّل، وسط النقود، وفوقها، عدل ما بين شهيقه وزفيره، شرد بذهنه، وبين الفيْنة والأخرى، يتبدَّى على أسارير وجهه فيض ما يذهب إليه في شروده في تأملات وأحلام سعيدة.

فاقَ من شروده عندما ظهر له سؤال ملح!

«حقيبة مَنْ هذه؟».

الطريقة التي أتت بها إلى شقته لم تعد مشكلة، بوَّاب العمارة أخطأ وظنّ أنها حقيبته فأحضرها إليه. خطأ تغيَّرت به أمور كثيرة، هكذا يمكن تحقيق أشياء عظيمة في لمح البصر، بسبب خطأ تافه غير مقصود، ليست دائمًا الأخطاء تؤدي إلى كوارث، أحيانًا تؤدي إلى حقيبة ممتلئة بالنقود!

لكن من صاحبها، هذا هو السؤال.

قال مُحدثًا وجهه في المرآة التي فوق الحوض، وفي عينيه شراهة الجائع المُقبل على الطعام:

- «هل من المهم أن أعرف صاحبها، أم لا أشغل رأسي بهذه الفكرة، في كل الأحوال هي حقيبة فقدها صاحبها، ربما أحد عملاء البنك الزراعي الذي على أول الطريق، ومن الممكن

أنّه الآن مصاب بالتشنّج مثل الفلّاح الذي سرق اللصوص نقوده. في النهاية هي ليست حقيبتي، والنقود ليست من حقي، وكل الأحلام السعيدة التي في رأسي لا يمكن تحقيقها بهذه السهولة. يُمكنني السؤال عن أصحابها، أذهب إلى البنك وأخبرهم بعثوري على شيء، فيأتي صاحبه ليستلمه ويجيب على أسئلة تضمن أنه المالك الحقيقي، مادمت أعرف الطريق الذي أرجع بها الحقيبة إلى أصحابها، فما الذي يمنعني عن فعل ذلك»؟

توقف هنيهنة، ثم أردف وعلى شفتيه نصف ابتسامه:

- أتكون الفرصة قد جاءت أخيرًا بعد الكلل والشقاء، بعدما جنت عليَّ الحياة طوال سنين مضت، سأصبح إنسانًا جديدًا، ثريًا ومرتاحًا! سأذهب إلى صاحب الحوش المستغل، أشتري منه الحوش، أو أنافسه في السوق، نعم، أنا بتُّ أعرف أسرار العمل، أعرف أشياء هو لا يعرفها، سأنافسه وأجعله يخسر كل نقوده، ثم يأتني في النهاية يستسمحني لأن أعفو عنه».
- «لا تفعل، إيّاك وإيّاك».

لم يكن منتظرًا ردًا من أحد، إلّا أنَّ صوتًا حدَّثه، لا يعلم مكانه أو شكله أو شيئًا عنه، صوتًا ذكوريًّا، شعر بخضَّة تخطف قلبه، بلع ريقه،

نظر إلى ورائه في لحظة، سأل نفسه: هل من الممكن أن يكون الصوت حقيقيًا، هل تحدَّث أحد إليَّ فعلًا، أم أنَّ الأمر مجرد تخيلات في عقلي.

نظر إلى أمامه مرَّة أخرى حيث المرآة، لم يزل وجهه مفجوعًا، لم يقتنع بأنَّ الأمر خيالٌ.

جاءه الصوت الغريب من جديد، يحذِّره من مدَّ يده إلى الحقيبة، التفتَ إلى كل زاوية في الشقَّة، تغير وجهه إلى الأصفر من الخضة، سأل في خوف:

- «من أنتَ»؟
- «انظر أمامك، أنا على الكرسي، كيف لا تراني؟!».
- «ليس على الكرسي سوى المعطف».
- «نعم، أنت مُحق، أنا فقط على الكرسي».
- «قلتُ: المعطف»!
- «أنا هو، أنا المعطف يا نجيب بيه».

بحلق في المعطف، ثم ضرب رأسه بيده متهمًا نفسه بالجنون، معطف يتكلَّم، كيف، أين لسانه، أين شفتيه، كيف، ومن أين يخرج الصوت، هل من بين أنسجته التالفة، هل تكون هذه الأزرار هي أنفه وأذنه، استمر صامتًا وعقله ملتهبٌ بأسئلة معقدة ليس لها إجابة، إلى أن تحدث إليه الصوت مرة أخرى..

- «لا تقرب الحقيبة يا نجيب، إنَّها الدوامة التي ستشدُّك إلى ما لا يُرضيَك، عالم آخر أول ما يموت فيه هو ضميرك، أنت لا تَقْدِر على العيش من دون ضمير، أنت بالذات لا يمكنك، الحكاية ليست بهذه البساطة يا نجيب باشا، الحكاية معقدة جدًا، أكثر مما تتصور».

أمسك المعطف بيديه، بحلق في كل أجزائه، تمشَّى به في أرجاء الشقَّة، أردف الصوت:

- «هناك شخصٌ معك في المسألة، شخص هو صاحب الحقيبة، فكَّر فيه، ماذا إذا كانت الحقيبة ستنقذه من كارثة، ماذا إذا هي ليست نقوده، أمانة تُركَت عنده على سبيل المثال، أو مرتبات موظفين وما هو إلّا موظَّف بسيط سيدخل السجن بسببك».
- «سُحقًا، أي آخر الذي تطلب مني الاهتمام به، أنا بالنسبة لصاحب الحوش آخر، لماذا لم يهتم بي. ما هذا الهراء، ما من عاقل يكون في يده مثل ما في يدي ويسمع لصوت يطالبه بالتفريط فيه، ثم أنا لا أعرف صاحب الحقيبة، فكيف أرجعها إليه، إنها حقيبة مجهولة، ليس لها صاحب، ويجب أن أكون أنا صاحبها».
- «تأنّى واصرف هذه الفكرة الحمقاء عن رأسك، لا تقرب النقود أبدًا».

وضع المعطف على الطاولة، وبدأ يدور حوله مسددًا نظرات غاضبة صوبه، لم يستسلم للصوت الذي اقتحم حياته الهادئة، قال إنَّه سيقرب الحقيبة، سيبددها، مدعيًا أنّها أصبحت ملكه الآن، وقف أمام كل محاولات الصوت:

- «لا تفقد قيمتك يا نجيب».
- «قيمتي! وما قيمة رجل فقير ليس معه مال».
- «إذا كان المال الذي تتقاضاه من عملك قليلًا، فهذه سنَّة الحياة يا نجيب، لست وحدك على هذه الحال».
- «القليل من المال ليس مالًا».
- «ابحث عن عمل غيره تكسب منه مالًا كثيرًا، لا تسألني كيف، هذه مشكلتك وحدك. اسمع كلامي، لا تقرب الحقيبة، إنَّها الفخ الذي أُعدَّ لك، أطعني يا نجيب ولا تكن عنيدًا».
- «سآخذها، إنَّها حقي، أنا فقير، هل تعرف ما معنى أن يكون الإنسان فقيرًا!».

فتح باب الشقة، نادى أبا حنَّة وعندما حضر أعطاه المعطف بلا ثمن.

دخل شقته، فكَّر، ما هذه الحماقة التي ارتكبتها، المعاطف لا تتكلَّم،

لا بد أن الصوت الغريب كان مجرد حس في أعماقي وليس للمعطف ذنب فيه، لم يزل الشتاء طويلًا وأحتاج خدماته.

استرده من أبي حنَّة بعد دقيقتين فقط..

قرر إخبار أبي حنَّة بكل شيء، يشاوره في الأمر ليساعده بحل من عنده.

طلب نجيب منه مرافقته إلى الشقة بحجَّة أنَّ لديه مُشكلة، سبقه خطوات، تسارعت خطواته إلى حد الركض، صارت المسافة بينهما كبيرة. دخل نجيب قبله الشقة، النقود مبعثرة على الطاولة، إذا حضر أبو حنَّة سيراها وهو واقف على عتبة الباب. ارتعشت أطراف نجيب، راوده شعور بأنَّ الذي يريد فعله ليس من الصواب في شيء، وينبغي عليه إعادة حساباته بسرعة، هذه الحقيبة أتته لم يذهب إليها، لم يسرقها من يد شخص ومن ثم هرب بها، لم يفعل مثل اللصوص.

في لحظة، دفع الباب قبل وصول أبي حنَّة

- «افتح يا بشمهندس نجيب، الهواء أغلقَ الباب».
- «شُكرًا يا أبو حنَّة، حُلَّت المشكلة.».

لم يزل المعطف في يده وظهره مُسْتَنِدٌ إلى الباب، مرَّة أخرى تكلَّم المعطف، طلب من نجيب أن يفلته من يده، أن يُرجعه إلى بوَّاب العمارة مثلما كان سيفعل، قال إنَّه لا يريد أن يظل في بيت واحد مع

لص. اغتاظ نجيب من كلام المعطف، ألقاه على الأرض في ضجر، وأرجع النقود إلى الحقيبة ثم وضع الحقيبة في غرفته، بعد ذلك فتح الباب، نادى أبا حنَّة، أدخله الشقة وأجلسه على الكنبة، كان المعطف أمامه على الأرض، طلب منه أن يجمع تركيزه على المعطف، لم يفهم أبو حنَّة شيئًا، طال الوقت، لا شيء يتغيَّر، نجيب ينتظر أن يتكلَّم المعطف، لكن لم يتكلَّم، لم يأته الصوت، شعر أبو حنَّة بالملل، دخل نجيب المطبخ، أعد كوب شاي لأبي حنَّة، انتهى من الشاي ولم يحدث شيء، لم يزل المعطف صامتًا، لا يريد التكلم بشيء، قال أبو حنَّة يسأل نجيب: هل سيطير؟ هل أنتَ ساحر؟» داس نجيب على المعطف في عصبية، أمره بالكلام، وسط ذهول أبي حنَّة.. نزل إلى الأرض، وضع أذنه على المعطف، تحدث بصوت منخفض، قال: قُل شيئًا يا جبان.. فأتاه الصوت منخفضًا بالكاد يصل إلى أذنه: اِنْسَ أن يسمعني غيرك يا نجيب.

وقف أبو حنَّة خائفًا من تصرفات نجيب الغريبة، فتح الباب بسرعة وانصرف..

شدَّ نجيب كرسيًا، امتطاه كأنَّه يمتطي حمارًا، لم يزل المعطف مفرودًا على الأرض..

«الآن أخبرني لماذا تحذرني من الحقيبة» سأل نجيب متمنيًا ألا يجد

ردًا، ثوان مرَّت دون رد وهو يمرر نظرات ثاقبة نحو المعطف الذي كان أسفل قدميه، وأقدام الكراسي الأربعة. شعر بالسعادة عندما مر وقت دون رد، لأنه بذلك قد أثبت لنفسه أنَّ الصوت الذي تحدَّث إليه منذ قليل لم يكن إلا أوهامًا في رأسه. ثمَّ، جاءه الصوت مرَّة أخرى، يحذِّره بحدَّةٍ وصرامةٍ من لمس الحقيبة أو حتى التفكير بها، «إذا اتخذتها لنفسك ستخسر كرامتك، لا تتنازل عن كرامتك لأنّك فقير» ترجَّاه ألا يصبح مثل امرأة فقيرة قدَّمت طفلها كوجبة دسمة إلى رجل فحل ليستغله جنسيًا مقابل سلَّة طعام أو بضعة نقود، يأكل الجسد النحيف، يسحق حياء نفس نقيَّة، ويقتل كرامتها، يُفرغ عَفنَه في لحظة ليخلق عقدةً في نفس بريئة تدوم لألف ألف ليلة، وحجتها أنَّها فقيرة وعليها التنازل. ترجَّاه الصوت بإذلالٍ كي يخرج الحقيبة من حياته إلى الأبد، قال نجيب:

«أيّها المعطف، أنت قديم وفقير مثلي، دعني أقدِّم لك نصيحة، نحن أصدقاء الآن وعلينا مساعدة بعضنا، يا صديقي، إذا لم تجد عملًا أو طعامًا في الصباح اسرق فطورك، وإذا لم تجد في العصر اسرق غداكَ، وإذا لم تجد في المساء اسرق عشاكَ، وإذا كنت لا تملك نقودًا تكفي لقتل مرض يريد قتلك، اسرق سريرًا في مستشفى».

قال الصوت: «الآخر يا نجيب، المسروق، ما ذنبه».

استمر بينهما الجدال على أشدِّه، انتمى كل واحد منهم إلى فريق، نجيب فريقه «أنا فقير، أنا محتاج، أنا لا أجد، لذا سآخذ الحقيبة» وانتمى الصوت إلى فريق «(المسروق) ماذنبه، تأخذ نقوده، لماذا تمد يدك لتخطف كل، أو حتى جزءًا من حقه رغمًا عنه».

العدالة إذا تكلمت، لأمرت الذين معهم فائض من المال النظر بعين الإنسانية إلى المعدمين من الناس، أمَّا ذلك أو تطردهم من رحمتها، لا يقولون نحن تعبنا في جمع نقودنا ولن نُعْطيهم منها شيئًا، كمثل رجل له عضلات، لمَّا استعان به ضعيفٌ على حمل أشياء معه، رفض ذلك القوي، وحجته أنَّ هذه القوة، وهذا الجسد، ملكه، تعب في تغذيته وبنائه، وليس من حق أحد الانتفاع به سواه! على سادة النقود إدراك حقيقة أن ضريبة الثراء التصدق على الفقراء، وأن الثري الحذق هو القادر على جعل اللصوص يخجلون من سرقته!

انتشل المعطف من الأرض، ألقاه في غرفته وأغلق الباب.

ضرب بطرفه أسفل الطاولة، رأى ورقة، ارتأى له من مكانها، أنّها سقطت من الحقيبة أثناء افراغها. عندما قرأها، تعقدت الأمور بالنسبة له، ضرب الطاولة بكلتا يديه. كان يريد أن تنقطع السبل بينه وبين صاحب الحقيبة، أن يظل مجهولًا، فتكون لديه حُجَّة أمام نفسه

تجعل هذه الحقيبة ملكًا خالصًا له، حجة أنّه لا يستطيع الوصول إلى صاحبها.

أقنع عقله أنه من الخطأ إخبار بوَّاب العمارة بالذي حدث، من الصعب توقع رد فعله، ربما يضربه ويسرق الحقيبة. لم يكن البوَّاب شريرًا لهذه الدرجة، لكن نجيبًا أراد رؤيته على هذه الصورة في هذه اللحظة فقط. ولو ذهب بها إلى البنك، أو أعلن على الملأ عثوره على شيء، ستتجه نحوه الأعين، أعين اللصوص والمحتالين على وجه الخصوص، ربما يؤذونه ليحصلوا على الشيء الثمين الذي عنده. أو تكتب عنه الصحافة وهي تمدح الرجل الفقير الذي سلَّم حقيبة ممتلئة بالنقود إلى أصحابها ولم يطمع بها، لا أحد يكره أن يصبح مشهورًا، نجيب أيضًا لا يكره، لكنه غيَّر هذه الفكرة الآن.

حتى تسليمها إلى الشرطة، من وجهة نظره، لا يعي إرجاعها إلى أصحابها، لأنه لا يأمن الضباط والجنود والأمناء، إنهم لا يبعدون عنه في الفقر، وأي فقير ستغرُّه هذه الثروة.

هكذا أغلقَ بنفسه جميع الأبواب التي تجعله يفكر في رد الحقيبة، حتى خرجت له الورقة.

صورة ضوئية من بطاقة هويِّة، عليها صورة باهتة غير واضحة المعالم لأحد الأشخاص. استدل نجيب، من البيانات الشخصية

المُدرجة، على أنّها ترجع لرجل، عُمره واحد وخمسون سنة، اسمه (أحمد أيوب...) من القاهرة. متزوَّج، وظيفته أعمال حرّة.

وفي جزء من الورقة، كُتِبَ رقم هاتف نقّال.

***

مرت ليلة صعبة على نجيب، نام أقل من ساعة، بعدها، قام من سريره، نظر في ساعته، هزها لتظهر الأرقام، عرف أنّه تأخر ساعة كاملة عن العمل، خلف باب غرفته، أكثر من بنطال مُعلَّقٍ في مسامير، شدَّ واحدًا دون تمييز، ارتداه فوق بنطلون بيجامته، تصرَّف بعجالة، تناول من الأرض فردة من جوربه كانت ملقية أمام سريره، وضع جسده في المعطف، خرج إلى الصالة، بحث عن حذائه، وجده، أخرج منه الفردة الأخرى للجورب، وضعها في رجله مثل الأولى، لم يغسل وجهه ولم ينظر في المرآة.

أسرع ناحية الباب، أمس تأخر عن العمل، لو تأخر اليوم أيضًا سيطرده صاحب الحوش. وقف أمام الباب، تبلَّم وجهه، صحت في أعماقه الحقيبة. قضى الليل في عد النقود، وشعر برهبة من شقته المتواضعة، عندما عرفَ أنَّها تحمل بين جدرانها المتصدّعة (مليون جنيهًا)! على الأقل، يجب إلقاء نظرة عليها، أو نظرات، أو حتى يوم كامل، فليسقط الحوش وصاحبه المستغل وتحيا الحقيبة.

أخرجها من تحت سريره.

لكن.. الورقة المحبطة، على وجه الحقيبة، تحدجه بشر، والمعطف الأحمق، المستفز، يريد التكلُّم بشيء، فكَّر نجيب بسرعة، هل يخلعه عن جسده ويُلقي به في الأرض، فعل ذلك من قبل، ألقاه في الأرض وداس فوقه، ولم ينفع شيء، الصوت الذي يأمره بالتخلي عن الحقيبة، عاد من جديد، يأتيه من فوقه وتحته وعن يمينه وشماله، يسبح في عروقه، يتمثل رحِمًا لقلبه ودماغه تتكوَّن فيه مشاعره وأفكاره..

«حذاري، لا تفعل، قلتُ لكَ لا، تعرف صاحب الحقيبة، تواصل معه، بمقدورك إرجاعها، لو لم تفعل ستكون لصًّا، هل تفهم، أتعلم ماذا يعني أن تكون لصًّا! لا تكن أحمقًا، لا تسرق، أنت لا يمكنك بالذات، لأنّك نجيب الذي لم يفعل هذا في حياته، أتعرف لماذا يحترمك الناس، لأنّهم يرون فِيك آيات من نبل النفس، وحسن السمعة، يرونك مخلوقًا جميلًا يا نجيب، ولتعرف، من خُلِقَ جميلًا خُلِقَ له احترام الناس. فلا تهدَّ ثقة الناس فيك، لا تهدَّ ثقتك أنتَ في ذاتك. أعد الحقيبة إلى صاحبها وعش مخلصًا لضميرك. يُمكنك تحمُّل مصاعب الحياة، الرجال يحتملون. يا نجيب، في يوم قريب ستتحسن الأحوال دون التحول إلى مجرم، يا نجيب بيه، الشرفاء أيضًا يصبحون أثرياء. يا نجيب باشا، في يوم، ستضع رأسك على وسادة لتُحتضر، قد تكون

وحيدًا أو تحيطك عائلتك، ستتذكر كل شيء حينها، كل الحماقات ستتذكرها، ستندم ندمًا يجعل عينيك تذرف الدموع بغزارة، ولن تكون قادرًا على مصارحة أحد. أنت بذلك تؤذي صاحب الحقيبة، لا تؤذِ أحدًا إلى آخر يوم في حياتك، تحت أية ظروف لا تؤذ أحدًا، ستحبك المخلوقات جميعها سواء نطقت لك بذلك أو لا، سيفتقدك العالم سواء كنت مشهورًا أو متشردًا».

حكَّ ظهر المعطف بغلٍّ في الحائط وهو يقول: «اسكت».

كوَّمَ ورقة البطاقة وألقاها في سلة القمامة الموضوعة في المطبخ، ثم جعل جسده على الكنبة التي في الصالة، ثوان فقط وهزَّ رأسه في قلق، لم تزل المشكلة متَّقدة.

اتجه صوب سلة القمامة، دس الورقة بطريقة لا تجعلها تظهر، حملها إلى باب الشقة ونادى أبا حنَّة ليأخذها ويفرغها في المكان المخصص لها عند نهاية الطريق، ثم عاد إلى كنبته.

شعر بالجوع، دخل المطبخ، فتح صنبور الماء، استمر ناظرًا إلى سيل الماء المتدفق من الصنبور، شرد، نسي السبب الذي أدخله المطبخ، لم يعد موجودًا في هذه الدنيا. شعر بشيء يجثم على قلبه، أغلق الصنبور وهرول إلى السلم، أبو حنَّة يحمل السلة وينزل بها، خطفها منه وشكره في توتر، ورجع بها إلى الشقه.

أخرج الورقة وفردها، وضعها على الطاولة، ظل ينظر إليها في مقت، رآها أقوى منه، لام نفسه لشعوره بالضعف أمامها، يمكنه أن يمزقها في لحظة، أو يحرقها، أو يغرقها في كوب ماء، وسائل التخلص منها كثيرة، هو لا يعرف على وجه التحديد السبب الذي يجعله لا يفعل ذلك.

أراد أخذ مبلغٍ من النقود، مدَّ يده في الحقيبة، حاول تخليص ورقة من رزمة كبيرة، سمع صوتًا قادمًا من غرفته، الباب مفتوح، المعطف على السرير.

- «تمهَّل، هل تعلم ما أنتَ قادم عليه، أغلق الحقيبة يا نجيب».
- «لن أغلقها».
- «قلتُ لا تفعل».
- «اسكت».

نزع ورقة قيمتها مئتي جنيهًا، دخل غرفته، ارتدى المعطف.

مشى في شارع مرصوف بالمحلات التي تقدم الوجبات السريعة، كل ما تشتهيه النفس، الوقت ظهرًا، بطنه لم تزل خاوية، يريد قتل الجوع المسيطر عليه، وزَّع نظره على المحلَّات وترك قدمه تسير.

دُخانٌ منبعثٌ من شوَّاية هيَّج معدته، سيأكل كبابًا، توقَّف أمام المحل، مشى خطوات بطيئة إلى الداخل، مثل الذي يدوس حافيًا على

قِطَعُ زجاجٍ حادةٍ. يمكنه توجيه ضربة قاضية إلى الجوع، ما المانع، في جيبه النقود، ويمكنه، إذا لزم الأمر، الرجوع إلى الحقيبة وملء جيوبه ثم يعود ليشتري فخد الخروف المعلَّق في واجهة المحل، أو يشتري المحل كله.

راقب حركاته المرتبكة عاملٌ ارتاب في أمره، مثل الذي تكون هذه ثيابه لا يُمكن أن يدخل المحل بصفته زبونًا، ليس أكثر من شحاذ، ولم تكن سُمعة الشحاذين في هذه الناحية طيِّبة.

سأله عامل المحل عن حاجته، فعاد الصوت مرَّة أخرى، تحدث في همس خفيف..

«يسألك عن الذي تريده، أخبره لو تقدر، قل له أنا لص سرقت حقيبة وأخذت منها مئتي جنيهًا وأريدك أن تبيع لي كذا وكذا، هيّا يا لص افعل، ماذا تنتظر، الرجل يحدق فيك بغرابة، تظن أنَّه عرفك، إذا كان ذلك صحيحًا، عليكَ أن تجعل من رجليك عجلات قطار وتهرب قبلما يطلب الشُرطة، أفلت بجلدك يا غلباان».

قال نجيب لعامل المحل:

- «هل تسمع صوتًا؟ هل يُكلمني أحد».

ارتأى للعامل أنَّ نجيبًا ليس شحاذًا فقط كما ظن، بل مجنونًا أيضًا، مرّة أخرى، سأله العامل عن حاجته، ليرتفع صدر نجيب من

القلق، فكَّر ثوان، بعدها سأل عن سعر كيلو الكباب، ثم سعر الفرخة المشويّة، وكيلو الكبدة، أيقن العامل أنّه لن يشتري، يسأل فقط، ثمّ في النهاية أخرج من جيبه جنيهًا واحدًا، وضعه في يد العامل، وشدَّ رغيف خُبز كان أمامه، اقتطع منه قطعة، وارتمى وسط دخان الكباب يمسك الدخان بقطعة الخبز التي اقتطعها، ثم يأكلها، وهكذا، حدث ذلك أمام عين عامل المحل، الذي تحوَّل إلى ثور هائج يرى نجيبًا رقعةً حمراء تتحرك! دفعه بقوة إلى خارج المحل وهو يقول:

- «امتلأت البلاد بكم يا أولاد ال ... روح في ستين داهية يا ابن ال ...!».

عندما عاد، كان أبو حنَّة يجلس في مكانه الدائم، أمام العمارة، وأمامه طبقان، في واحد فول، وفي الثاني مخلل وطعمية، وخبز بلدي. ومن منطلق الكرم، أصرَّ على نجيب ليأكل معه، جلس وبدأ يلتهم بنهم.

- «والله يا أبو حنَّة فولك السخن بالزيت الحار والطعمية أشهى من فخد الكلب الذي كنت عنده منذ قليل».

بلع الذي في فمه ثم قال بعينين متسعتين:

- «وهل كنتَ تريد أكل فخد كلب يا بشمهندس نجيب، ذوقك في الطعام أصبح سيئًا لأبعد الحدود».

- «لم تفهمني.. لكن أريد أن أسألك سؤالًا مُلحًّا».

قال أبو حنَّة بلسان مُعوج وهو يقطم خيارة:

- «قُل يا عم المُلح».
- «عمارتنا ستة طوابق، صَح يا بيه؟».
- «صح».
- «بعض الشقق أغلقها أصحابها وسافروا، السؤال إذن، ما دامت معك مفاتيح الأقفال، وتعرف متى يحضر أصحاب الشقق، فلماذا لا تفتح واحدة يا أبو حنَّة باشا، وتعيش فيها أنت وعائلك مدة من الزمن، بدلًا من العشَّة التي تسكنها».
- «من المفروض أن يحدث هذا فعلًا، حرام أن تظل الشقق مغلقة والكثير من الناس لا يجدون مأوى. لكن أنا الحمد لله عندي بيت، عشَّة أو غُرفة، من طوب أو طين، المهم أنَّ لدي أربعة جدران وسقف. ثم إني أخاف فعل ذلك، تريدني أن أسطو على حق غيري!».
- «لن يحاسبك أحد، أنت الكل في الكل هنا، فلمَ تخاف»؟
- «الله رقيب يا بشمهندس، والمحاسبة ستكون عسيرة».
- «ماذا لو لم يكن الله رقيبًا!»

- «أستغفر الله يا بشمهندس، ما هذا الكلام».
- «جاوبني فقط».
- «كنت سأبيع العمارة».

ترك أبا حنَّة ينظِّف الأطباق بآخر قطعة من رغيفه ومضى إلى شقته، وأرجع المئتي جنيه إلى الحقيبة!

* * *

صار له شريكٌ في شقته لا يُفارقه، حقيبة رياضية يزيد سعرها على المليون جنيهًا، شعر أنَّها تشهق وتزفر، وترقبه أينما ذهب، تحرَّك، فكَّر، تهضم بدلًا منه قليل الطعام الذي يضعه في معدته، فتكبر هي ويظل واقفًا على نقطة في خط الزمن لا يبرحها، والآن، سمع صوتًا آخَر، غير صوت المعطف، صوتًا أنثويًّا رقيقًا، من يتكلَّم، من في شقتي، من!

- «أنا الحقيبة يا نجيب، لا تخف، أنا هي حقًّا».
- «وأنا المعطف يا صديقتي، أنا منهار من أجلكِ، هذا اللص سرقك وحبسك هنا».

نجيب المسكين، هجمت عليه صدمة أقعدته في تبلِّم وذهول، قال بعدما التقط نفسًا عميقًا:

- «معطف على جسدي يتحدَّث إلى حقيبة على الطاولة، هذا يحدث أمام عيني، يرحبان ببعضهما، الأصوات حقيقية، لا يُخيّل إلي، لا أحلم «أحيه أحيه أحيه».

سكت لحظة ثمّ قال في انفعال:

- «أنا مجنون، هذه أوهام، لا شيء من هذا يحدث، لا شيء هنا حقيقيٌّ، سأزور طبيبًا نفسيًا، مشاكل الحوش ومعاملة سلمى القاسية لي ضغطت على عقلي لينفجر بخيالات ساذجة، هذه الحكاية ببساطة، لا داعٍ إلى القلق، سأعود طبيعيًا، سأعود طبيعيًا مرّة أخرى».

صوت الحقيبة:

- «لا، كل ما تسمعه حقيقي، الأصوات التي تصلك حقيقية، اذهب إلى ضابط شُرطة ليضعك في السجن لأنَّك سرقتني، لا إلى طبيب ليعالجك. يا نجيب، انظرني بعين العطف، كُن رحيمًا بي، أليس لك قلب، ألا تملك مشاعر، أنتَ رجل طيِّب ولطيف، أشعر بك، دعني أغادر سجنك الذي تحتجزني فيه بالقوَّة، أعطني حريتي يا نجيب أرجوك، البشر طيبون، لماذا أنتَ لست كذلك، هل أنتَ من البشر يا نجيب؟».

صوت المعطف:

- «لا تحزني يا صديقتي الحقيبة، لو أنّكَ يا نجيب بيه تعرف أنَّك مجنون، فلماذا تحتجز هذه المسكينة معك في مكان واحد، أنتَ تُمثِّل خطرًا وتهديدًا على حياتها، من باب المروءة، والرجولة، عليكَ أن تدعها ترحل، أمّا أنا فيُمكنني التحمُّل، سأظل معك

إلى نهاية العمر، لن أشكو شيئًا، لكن تلك الضعيفة ما ذنبها، إنّها طفلة يا نجيب، نعم طفلة، أنتَ تحتجز طفلة، هل تفهم ذلك، انظر إلى تاريخ انتاجها، عمرها شهران فقط! قلبي يتمزَّق من أجلها، لا تكن قاسيًا متبلِّد الحِسِّ يا نجيب أرجوك».

صوت الحقيبة:

- «من فضلك أيّها المعطف، لا تقل طفلة، أنا كبيرة، الحقائب تكبر بسرعة، تحقق من كلامك قبل أن تقوله لو سمحت»

انفعل نجيب، احمرَّ وجهه، صاح، قال بصوت دوَى في أرجاء الشقّة:

- «اسكتا».

قبض على الحقيبة، رفعها في الهواء، أمام عينه، رجَّها بعنف، أردف:

- «أنتِ تحدّثْتِ، الصوت الذي سمعته صوتكِ؟ تحدّثْتِ؟ ها؟؟».

ثوان، ثمّ جاءه صوت الحقيبة، صوت مرتعش خائف، يقول:

- «نعم، أرجوك لا تؤذني يا نجيب».

أعادها إلى الطاولة، فوضى وعصبية ظهرت في تصرفاته، رفع كرسيًا في الهواء، حدَّق فيه، قال:

- «هل لك لسان أنتَ أيضًا، ها؟».

ضرب الكرسي بالأرض، سأل السؤال ذاته إلى هاتفه، وحذاءه، وأي شيء كان يقابله..

صوت الحقيبة:

- «انظر يا صديقي المعطف، انظر كيف يُحلق فيَّ، إنَّه هكذا دائمًا، أنا حقيبة مسكينة وضعيفة يا نجيب، اتركني أرحل أرجوك. تحسب أني أراقبك وأنشغل بك، لكني على غير ذلك منك، إنما أنت الذي تضعني على الطاولة في أوقات كثيرة، وتثبِّتُ بصرك عليَّ ساعات، مثلما تفعل الآن، تُخيفني نظراتك، وأسئلتك الغريبة، تتنصَّت عليَّ في الليل، تجيئني من أقصى ركن في الشقة سائرًا على أصابع قدميك في حذر شديد، ثم تزحف على الأرض لتنظرني تحت السرير، تكلِّمني، وتناصفني طعامك وشرابك وثيابك وأفكارك وهمومك، تضربني بيديك وقدميك وتنهال علي بالشتائم المُبتذلة، ثم، بعدها، تدللني وتراقصني وتسمعني كلامًا مُحترمًا لا يُسمع إلّا بين قلبين موصولين بالحب الأبدي. سَئمتُ انفصامك واضطراباتك، تخادع نفسك، تكذب، تعرف أنّي لست من عائلتك، أو أصدقائك أو أحبائك، وأنَّ أشخاصًا يبحثون عني، حزينون على فقداني، لكنك مصرٌّ على اختطفاي، ثم تدَّعي، في بجاحةٍ واضحة ولا مبالاة، أنَّك رجل شريف».

أحيانًا، عندما يكون معها، في غرفة النوم، يراها فتاة فارعة تستهويه وتغويه، فيغض بصره أو يجعلها خارج غرفته ويغلق الباب، ثمَّ، عندما يغوص في النوم، يحلم بها تناديه بصوت عاهر، وتدق ليفتح لها.

صوت المعطف:

- «يا لص».
- «لا تقول لصًّا».
- «هذا أنتَ».
- «الحقيبة لم تنقص قرشًا، أعدت المئتي جنيه».
- «إذا كان الاحتفاظ بها ليس هيّنًا، خصوصًا إذا كنتَ تراها تُكشِّر لك عن أنيابها كلَّما حاولت لمسها، فلما لا تسمع لي، أرجعها إلى صاحبها يا نجيب، على أن تكون لك نسبة من النقود، لا تطمع، فالقليل من الحقيبة كثير، لما لا تنهض لتصل إلى صاحبها وتطلب منه النسبة التي تريدها، عشرة من مئة ممكن، أو يزيد. النقود ليست في يده وسيوافق على أي شرط، حتى لو انتصفتَ المال معه».

لم تكن هذه الفكرة تائهة عنه، لكن كان ينتظر من يحثه عليها..

من درج «الكوميدينو» أخرج شريحة هاتف كان قد اشتراها منذ زمن ولم يستخدمها قط.

استبدل الشريحة التي في هاتفه بها، أحضر بعض وريقات وقلم، بدأ يكتب، ماذا سيقول لصاحب الحقيبة، ما الذي سيطلبه، كيف سيصله مطلبه، وماذا سيكون رد فعله إذا رفض صاحب الحقيبة أو هدده، قرأ ما كتب مرّات وأجرى تعديلات..

ومن باب اتخاذ الحذر، رأى أنَّ عليه إجراء المحادثة من مكان يبتعد عن شقته، يمكن لصاحب الحقيبة، بمعاونة الشرطة، جعل شركة الاتصالات تتتبع المكان الذي خرجت منه المكالمة، لذا نزل إلى الشارع، استقل حافلة أوصلته إلى وسط القاهرة.

اتِّصال..

- «دون مقدمات، هل ضاع منك شيء».
- «أنت اللص الذي سرق الحقيبة».
- «لماذا قلت لصًّا، من الممكن أن أكون رجلًا عاديًا عثر على حقيبة».
- «لأن الرجال العاديين لا يسرقون الحقائب من سيّارات الناس».
- «تقول أنها كانت في سيارتك!».
- «أتمزح معي أيها اللص، ألا تعرف المكان الذي سرقت منه، قل أيضًا أنَّك لا تعرف ماذا يوجد في الحقيبة. أرجع حقيبتي وإلَّا كان عقابك شديدًا، أنتَ لا تعرف مع من تتحدث».

- «اسمع، لا يهمني من أنت، واعلم أني لستُ لصًّا، أقسم لك، لقد عثرتُ على حقيبتك، وسأرجعها».
- «صحيح! شكرًا لك على أي حال، قل لي أين أنت وستجدني عندك في دقائق».
- «لا تتسرع، أريد ربع المال الذي في الحقيبة، هذا شرطي، ما رأيك».
- «ماذا، هذا كثير، سأعطيك (10) في المئة، أما أكثر من ذلك فلا».
- «قلتُ ربع المال، إذا رفضت سأغلق الهاتف ولن تسترد حقيبتك أبدًا، ستخسر كل شيء، قل كلامك الأخير».

صمت..

- «حسنًا، أنا موافق..».
- «سأتصل بك لاحقًا، وأنصحك ألا يخرج الحديث عنَّا نحن الاثنان.».
- «اطمئن، لكن متى ستتصل...».

بعدما أغلق الهاتف، شغلته من حديثه مع صاحب الحقيبة جُملة، عندما قال محدِّثه أنَّ الحقيبة كانت في سيارته. فيما سبق، أبو حنَّة أخبره أنَّه وجدها مُلقاةً على الأرض، فهل كان يكذب أبو حنَّة. لكن لماذا

يكذب، أيكون سرقها من السيَّارة ثم استيقظ ضميره فأراد التخلص منها. هذا ممكن، لكن، لماذا يكون هو الفاعل، أليس من الممكن أيضًا أن يكون لص سرقها من سيارة صاحبها ولم يستطع الهروب بها فأفلتها من يده. تشبَّث نجيب بالفكرة الأخيرة، ولم يسأل أبا حنَّة عن شيء، حتى لا يشعر بأهمية الحقيبة، ويبدأ بالشك.

اقتطع لنفسه ربع النقود، وضعها في كيس أسود، ثم جعل الكيس تحت سريره، بعد ذلك علَّق الحقيبة في كتفه ومضى بها.

صوت الحقيبة: «شكرًا يا نجيب لأنّك سترجعني، كنتُ أثق أنَّك لست لصًا من البداية، أنتَ طيِّبٌ يا نجيب».

صوت المعطف: «أهنئكِ يا صديقتي، عليكِ بزيارتنا، سأنتظرك».

صوت الحقيبة: «سأزورك مرتين في الأسبوع وسو..».

نجيب مقاطعًا: «اخرسا».

وصل إلى حديقة الأزهر، جلس على استراحة، وضع الشريحة في هاتفه، اتصل بصاحب الحقيبة، أخبره أنَّ حقيبته تنتظره، ودلَّه على المكان. ترك الحقيبة متجهًا صوب مكان قريب يسمح له بمراقبتها دون أن يلحظه أحد، مرَّت الدقائق، دقيقتان ثم سبْعٌ، ومع كل ثانية يزداد توتره، فكَّر..

صوت المعطف:

- «هل تمزح، بالطبع أنتَ لا تفكر بهذه الطريقة».
- «بدأت تشعر بأفكاري أيُّها المعطف، نعم سأذهب إلى الحقيبة وأعود بها إلى الشقَّة».
- «لماذا! هل كنتَ تخدع الرجل، سيأتي ولن يجدك».
- «ماذا لو أن كاميرا مراقبة رصدتني وأنا أضع الحقيبة بطريقة مريبة، بالطبع سيقولون إرهابيًا، وأنها ممتلئة بالمتفجرات، ستكون مصيبة. أو ماذا لو وصل إليها أحد قبل صاحبها الحقيقي، الأطفال الذين يلعبون حولها قد يفعلون».
- «فكَّر في حل، أي حل، أو دعني أُفكِّر لك، لكن لا ترجع بها إلى الشقّة».
- «لماذا أرجع كل هذه النقود وأرضى بهذا القدر الضئيل، يمكنني المطالبة بأكثر منه، وسيوافق بكل تأكيد، ولن أكون لصًا أو مستغلًا».
- «افعل ما تشاء، لقد فقدتُ الأمل فيكَ يا نجيب».

ترجَّل صوب الحقيبة، حملها مغادرًا بها قبل وصول صاحبها.

صوت الحقيبة: «حراميييي، أنا مخطوووفة، أنجدوونيييي».

صوت المعطف: «سرق الحقيبة، حرااامييي، امسكووووه».

عادت الحقيبة ضيفًا ثقيلًا على قلبه، لا يقدر على طرده من شقته ولا يقدر على تقبله بروح سمحةٍ. هل من الممكن على رجل مثل نجيب أن يتحول في دقيقة إلى لص، ماذا سيكون موقفه عندما يسمع أشخاصًا يتهامسون عن لص، أو يتحدثون عن اللصوص الذين يسرقون خزائن الدولة، هل سيتألم، سيظن نفسه المقصود بالكلام، سيقبع رأسه في قميصه ويمضي متجنبًا حديثهم. في مرّات كثيرة وضعته الظروف في اختبارات للأمانة، مئة جنيه وجدها في الحوش فسأل عن صاحبها وأرجعها إليه. ومرّة اشترى رجلٌ حديدًا بسبعة آلاف جنيها، دفع لنجيب عشرة عن طريق الخطأ، فناداهُ نجيب وأرجع له الزيادة. وفي مرة، عثر على محفظة ممتلئة بالنقود في الحافلة فأعادها إلى..

لكنها بالنسبة للحقيبة، ليست إلا اختبارات تافهة، ليست شيئًا على الاطلاق.

رأى أنّه إذا استطاع إنفاق قدرٍ قليلٍ من النقود سيمكنه فيما بعد السيطرة على أفكاره المزعجة، وينفق باقي النقود. اقتطع لنفسه ألف جنيهٍ، في المرة الأولى اقتطع مئتين فقط، وعاد دون أن يُنفقها، هذه المرّة قرر أن يقدر.

صوت المعطف:

- «مرَّة أخرى تريد أن..».

في لحظة وضع الألف جنيه في جيب معطفه وخرج.

كان الوقت ليلًا، والجو عاصف وشديد البرودة.

وصل إلى محل لبيع البِدَل.

اختار لنفسه بدلة سوداء كاملة، بالقميص والكرافت والبنطلون والحذاء الكلاسيكي الأسود. مد يده المرتعشة بالنقود إلى صاحب المحل، دفع 860 جنيهًا، استطاع هذه المرة إخراج النقود، لم يكن الأمر هينًا، لم يتوقَّف المعطف عن لومه، وأرجع ما تبقَّى من النقود إلى الحقيبة!

***

كان صاحب الحوش يجلس إلى مكتبه، عندما شعر بجلبة خارج المكتب، مدَّ نظره في شاشة المراقبة التي أمامه، وجد رجلًا يرتدي بذلة فارهة، وجميع الموظفين والعُمَّال ملتفون حوله، خرج ليعرف ما الذي يحدث..

نجيب يقف في الوسط والجميع يباركون له بدلته الجديدة. ناداه صاحب الحوش إلى مكتبه، تبعه نجيب وأغلق الباب، سأله عن سبب تغيبه عن العمل أمس، اكتنفت نجيب بلاهة، لم ينطق ببنت شفة. شعر صاحب الحوش أنّه يتحدث إلى تمثال حجري، تغاضى عن سؤاله

الأول، وسأله عن البدلة، ليقابله نجيب بذات الوجه المتحجِّر، الذي سرعان ما أصبح مُخيفًا، فما كان من صاحب الحوش إلّا أنْ دفع نجيبًا بقبضة يده ليجعله يتخلَّى عن بلادته.

- «كنتَ ستسقطني على الأرض يا حجُّوج، هل أهون عليك، حسنًا سأقول لك سر البدلة، سرُّها أنَّ العمل عندك يا حجوج بيه..».

قالها هكذا، وبنبرة مائعة، كأنَّه يُدلل طفلًا، ثم أردف:

- «يستلزم أن أكون أنيقًا».

جعلت النبرة المستهزئة صاحب الحوش شديد الغضب في نفسه، قال نجيب ولكن بشكل أكثر جدية مما سبق:

- «كنتُ أحل الكلمات المتقاطعة ولقيتُهم يتحدثونَ عنك، يقولون إنك مستغل وجشع ولا يشبع ولا يشكر».

عض صاحب الحوش شفتيه وعبس وجهه، أفرغ فوق رأس نجيب برميلًا من الشتائم البذيئة، مشى نجيب في هدوء مستفز إلى الباب، الصالة لم تزل ممتلئة بالموظفين والعمَّال:

- «من فضلكم يا سادة، لدي كلمة لكم إذا تكرمتم».

أرهَفوا له السمع، فأردف:

- «ما الذي يجبركم على البقاء في سجن؟ لماذا تخشون رجلًا أحمقًا يطحنكم في خلَّاط؟ لماذا تبقون مع لص يسرق سعادتكم، نحن رجال، نحتمل العمل مهما كان صعبًا، لكن يجب أن نُؤْجَر على تعبنا وعمرنا الذي يضيع، يجب أن نجد التقدير، هل تجدون من هذا الرجل شيئًا يجعلكم تستمرون في طوعه».

كان بارعًا في الأداء، يُسخِّر صوته لِما يقتضيه الكلام، يرفعه أو يجعله خفيضًا أو يوسطه بين الدرجتين، كذلك أسارير وجهه وحركات يديه، يدنو من الواقفين، ويُرسل كلماته بعدل بين أسماعهم وأنظارهم. تلقى صاحب الحوش كلمات نجيب في صمت وتحيِّر، وجميع من حوله كذلك..

- «أنا مغادر، لن أعود، سأبحث عن حياة أخرى، نصيحتي لكم أن تفعلوا أي شيء إلا أن تبقوا هنا».

غادر الحوش بعدما أحدث في جنباته فاجعة صدَّعت جدرانه، لم يلتفت إلى ورائه لينظر كيف يرقبه صاحب الحوش بعينه الممتلئة نارًا، انتظره ليرجع إليه ويخر ساجدًا، لم يحدث أن عامله بمثل ما فعل نجيب.

في شقَّته، دخل غرفته، لم يزل يرتدي البدلة، جلس على السرير وفي وجهه غمٌّ وانكسار، نظر إلى نفسه في مرآة طويلة مثبَّتة في درفة

الدولاب، أخرج الحقيبة من أسفل قدميه ووضعها على السرير، إلى جانب المعطف، نظرها في ضعف..

صوت المعطف: «انظر إلى نفسك في المرآة يا نجيب، لقد تغيَّر شكلك، أصبحت مثل شخص مريض بالسل».

وقف أمام المرآة، ظهر فيها بكامل هيئته.

صوت المعطف: «صرت بلا عمل، عاطل يا أفندي، هل تعي معنى ما وصلت إليه، هل تستوعبه، ما الخُطوة القادمة في حياتك أيّها البائس الحزين، تبديد الحقيبة، ستصبح لصًّا أخيرًا يا نجيب، كان عليك الاستسلام منذ أن ظهرت لك الحقيبة، ربما أنت دبَّرت كل ذلك بدهاء ومكر لتضع نفسك في مأزق كبير لا يخرجك منه غير الحقيبة. وتكون وضعت حجَّة مقنعة لتكون سارقًا بجدارة. لماذا في هذا الوقت بالذات تقف في وجه صاحب العمل وتُفْصح له عمَّا في قلبك، ها؟! لماذا شتمته؟! لماذا تجرأت الآن فقط؟ سأقول أنا لماذا، سأخبرك حقيقتك، كل ما في الأمر أنَّك لم تعد بحاجة إلى العمل، لأنَّك ترى الحقيبة المسروقة ستغنيك عن الحوش، لذا لا يقلقك طردك من العمل. هذه البدلة الفارهة وضعتك في قبَّعة الساحر الذي سيبدأ في تحويلك، دون أن تشعر، إلى شيء آخر مُضحك، ومُقرف أيضًا، فأر أجرب بلا ذيل،

أو كلب برأسين يسيل من فمه لُعابًا ذا رائحة كريهة، ولن تستطيع أن ترجع إلى أصلك، لأنَّ الساحر سيكون قد مات يا نجيب».

خلعَ ربطة عنقه، ألقاها في الأرض..

صوت الحقيبة: «لا تضع على جسدك شيئًا ليس من حقك، ألا ترى أنك تلتحف بشعلة نار، أنقذ جسدك قبل أن يُحرق تمامًا، اجعل لك في هذه الحياة مآثر، اجعل الناس يرون مكارمك ويذكرونك بالقول الحسن. الناس، السواد الأعظم منهم، إذا حُرروا من القوانين، قانون الأرض أو الذي شرَّعته السماء، سيجرمون، وإذا صحا ضميرهم لينهاهم ويعظهم، سيهزأون منه، ويطلقون صوب رأسه الرصاص، هؤلاء هم الناس إذا أُزيلت عنهم القيود، لكنَّك يا نجيب مُختلف، أنتَ من القلَّة، جيوبك خاوية من رصاصات القتل، ومن حسن حظِّك أنَّك لست الوحيد، لك قلَّةٌ يشبهونك، أنت تعرف لماذا يضطر الناس إلى السرقة، لكن لا تعرف لماذا تضطر هذه القلَّة إلى ألا تسرق، تريديني أقول لك لماذا، ها؟! لأنَّهم مدركون أنّ الحياة مُستمرة باستمرار نوعين فقط من البشر، العقلاء الذين يضعون القوانين ويؤلِّفون النُظم والأعراف التي تضمن، ولو بشكل يسير، بقاء البشر، والأنقياء، الذين يُحركهم نور مُقدَّس في أعماقهم اسمه الضمير الحي».

خلع البدلة وألقاها في الأرض..

صوت المعطف من جديد: «يا نجيب، أنصت إلى كل كلمة قالتها الحقيبة، تمعنها، وأدركْ مقاصدها، الضمير يا نجيب، الضمير يا صديقي، إنَّ عقلك وجسدك وروحك أشياء ثلاث، ضميرُكَ رابعهم، وهو عمودهم الفقري الذي ينشأون عليه، إن انفلت عنهم تفككوا وضاعوا. يا نجيب، إذا رآك صاحب الحقيبة لن يعرف أنك سرقت نقوده، لكنك تعرف، أنت الوحيد الذي تعرف. لا تتعجَّل رزقك، ربما غدًا أفضل لك، ألا عرفت أنَّ شجرة الثراء تُروى بالكد والصبر. فلا تخضع لما تُمليه عليكَ نفسكَ الأمَّارة، قد تبكي لكَ، أو تتمثَّل شيخًا بلحية بيضاء وجلباب طويل في لون السحاب، لا تنخدع بابتسامته ووجهه النَضر المشع نورًا، إنَّك لا تعرف ما إذا كانت هذه الابتسامة صَدَقة أم خُدعة، لا تأخذ كلامه بعين الثقة، حتى إذا رأيتَ على وجه كلامه ما يعجبك، حتى الأقوال المأثورة قد تخدع يا نجيب، المحتالون يضعون الحكم على وجه كلامهم كالتاجر الذي يضع أذكى بضاعته على وجه القفص ليُخفي بها الرديء».

خلع حذاءه وجوربه، وقف حافيًا، نزع قميصه وألقاه في الأرض، لم يبق على الجزء العلوي من جسده عدا فانلة بيضاء داخلية هَرِمة.

صوت المعطف لم يزل يلاحقه: «الوقت والحقيقة يسيران معًا إلى مكان فيه يلتقيان، وستعرف يومًا أنَّ الذي أقوله هو الصواب، الناس

الشرفاء يمكنهم فعل الذي تفكر فيه، افعله، انزع ما تبقى عليك من البدلة، لا تتردد، ألق ما ليس لك في الأرض وستنبت الأرض بما لك، عاقب نفسك، اجعلها تفهم أنَّك نادم بشدة، ولن تمد يدك في الحقيبة مرَّة أخرى، اجعلها لا تطلب المزيد، اجعلها تشعر كأنَّها تطلع إلى قمة جبل شاهق، حاملة على كاهلها جبلًا آخر، عاقبها يا نجيب، لا تغادر الحياة وفي ظهرك إنسان تسببت له في أذى».

خلع بنطاله، وقفَ أمام المرآة عاريًا، يرتعش من البرد.

***

نمت إلى ذهنه فكرة، أمّا ما سيتحقق له من وراء فكرته، إذا تمَّت، فهو أن تصبح الحقيبة ملكًا خالصًا له، ويُخرس صوت المعطف والحقيبة، سيتصل بصاحب الحقيبة مرَّة أخرى، ليس ليُرجع إليه حقيبته ويتحصَّل على نسبة مثل المرّة الأولى..

تحدّث إليه صاحب الحقيبة بصوت ماقت ممتعض، واتهمه بالكذب مع السرقة والاحتيال، فأخبره نجيب، بصوت هادئ، ونبرة رقيقة متوسِّلة، إنَّه ليس لصًّا، وأنَّه يُحدثه هذه المرَّة من أجل فكرة سيعرضها عليه، وبموافقته ستتغيَّر الأمور، فقبل صاحب الحقيبة أن يسمع إلى نجيب على مضض، فقال نجيب: إنَّه عثر على الحقيبة داخل شقَّته، وأي شخص غيره سيعدُّها، بدون أي تفكير، ملكًا له، ولن يتحمَّل مسؤولية البحث عن صاحبها، سيقول لم أسع إليها، إنما هي جاءتني، وأنَّه، أي نجيب، لا يجد نفسه مختلفًا عن هؤلاء، وأنَّه مضطر، لأن يفعل مثلما كانوا سيفعلون، سيأخذ الحقيبة لنفسه. دُهِشَ صاحب الحقيبة من كلام نجيب، رأى أنَّه كلامٌ لا يقوله إلا مجنون، ولا يوافق عليه غير واحد تفوَّقَ عليه في الجنون.

هدد صاحب الحقيبة، وكان جادًا في تهديده، بأنه سيغلق الهاتف،

فتوسَّل إليه نجيب كي يسمع له للنهاية، قال إنَّه لا يستطيع التصرف حتى في أقل القليل مما تحويه الحقيبة، وأنّ هناك شيئًا واحدًا سيجعله يتمكَّن من ذلك، هذا الشيء ليس بيد أحد عدا هو.

مثل مرَّات سابقة، لكن بشكل أكثر صرامة، اتهمه صاحب الحقيبة بكل شيء فظ وقبيح، وقال إنَّه بلا ريب لا يتمنى حدوث الشيء الذي يتحدَّث عنه نجيب، الشيء الذي سيحوِّل نقوده إلى لص غريب، ترجَّاه نجيب كي يسمع له، فسمح له بالكلام وفي نبرته حنق، كان الشيء الذي يرجوه نجيب، أن يسامحه صاحب الحقيبة، و يترك له حقيبته والنقود، طلب منه فعل ذلك بقلب متسامح ونفس راضية..

- «لماذا لا توافق، أنت في كل الأحوال لن ترجع إليك النقود».
- «سأغلق الهاتف».

وعده نجيب، بأنَّه إذا وافق على طلبه، فإنَّه سيكون سخيًّا، وسيساعد الفقراء والمحتاجين في كل مكان، ووعده أيضًا، أنَّه لن يُنفق شيئًا من الحقيبة أبدًا على إثم أو ضير. صاح في الهاتف: «سامحني، سامحني، لن تخسر شيئًا، وما من خيار أمامك، الحقيبة ليست معك، سامحني هذا أفضل لك وأفضل لي، كن متفهمًا أيّها المحترم».

- «ماذا تقول! أتسرقني وتطلب مني مسامحتك، لن أسامحك أبدًا أيها اللص، تطلب المستحيل، أريد حقيبتي، سأضعك

في السجن عمّا قريب، وستطلب مني مسامحتك، ولن أفعل أيضًا».

أغلق صاحب الحقيبة هاتفه..

فشلت المحاولة..

صوت المعطف: «غبي، غبي، غبي».

- «دعني وحالي، لم أكن أتصور أني سأمر بهذا الابتلاء، هذه الحقيبة ابتلاء».
- «تظن مصيبتُك عظيمة؟ إذا عُرضت عليك مصائب الناس ومصيبتُكَ بينهم لاخترت مصيبتكَ لأنَّها الأهون، تجرأ وانزل على قرية اطرق أي باب واستبدل الذي عندهم بالذي عندك! لن تجرؤ!».
- «اسكت أرجوك».

***

مرَّ أسبوعٌ..

نفدت بقايا نقوده التي ينفق منها على نفسه، الحقيبة أمامه، يُمكنه ملء جيوبه بالنقود مثل مرتين سابقتين، في المرة الأولى أرجع النقود ولم ينفقها، وفي الثانية اشترى بالنقود بدلة، ارتداها سويعات ثم نزعها

عنه ولم يرجع إليها ثانية.. ومع أول نظرة منه إلى الحقيبة، عرفت بما يريد، كأنّها تُبصر خياله، فشتمته، وهددته بغلظة أنَّها ستنزع عنه قلبه وستمضغه إذا تجرأ على وضع يده في أحشائها، فوجس قلبه وارتعدت فرائصه كأنَّ التي تجادله انقلبت إلى وحشٍ مُفزعٍ، فأغرب وجهه عنها وولى مُدبرًا، واضطر إلى بيع ساعة يده بثلاثين جنيهًا، باعها لأبي حنَّة الذي أحضر تاجرًا لشراء بعض الأثاث من الشقة، اشترى دولابًا صغيرًا وآخرًا كبيرًا، أمّا عن الأسِّرة، فكانوا ثلاثة، اثنان صغيران للأطفال في غرفة، وواحد كبير في غرفة نوم نجيب، باع الصغيرين وأبقى الكبير فقط، كما أبقى على الكوميدينو أيضًا. ثمن البيعة (1450) جنيهًا. بهذه النقود يستطيع تدبير حياته بعدما أصبح عاطلًا، إلى أن يجد عملًا آخرًا، أو يسامحه صاحب الحقيبة.

وضع نقود الأثاث في جيب المعطف ونزل السلَّم، جلبة كبيرة وصخب، خناقة عظيمة داخل عيادة طبيب الجلدية، السلالم محتشدة بالناس، لا يُعرَف مَنْ مع مَنْ أو مَنْ ضد مَنْ، فكَّر، هل يرجع إلى الشقَّة حتى يحل الهدوء أم ينزل السلَّم وهو على هذه الهيئة من الاضطراب، في النهاية نزل يتحسس طريقًا إلى خارج العمارة، توجَّب عليه شق طريقٍ في الأجساد الكثيرة المتلاحمة أمامه.

أبو حنَّة قابله على السلَّم، طلب منه مساعدته في فض الخناقة،

استغرب نجيب من طلبه، لأنّ أبا حنَّة، يعرف عنه، أنَّه عدُّو الخناقات وضجيجها، ولا يُحب أن يزج بنفسه في مثل هذه الأمور، لكنَّ أبا حنَّة لم يسمع له، ودفع به وسط الأجساد الكثيرة.

يد ثقيلة نزلت على قفاه، وأخرى، نزلت على رأسه كالمطرقة، لكمات لا يعرف من أين تأتي تخترق بطنه وظهره، جسد فحل يوقعه على الأرض، يزحف على الأرض، فتضربه الأقدام في وجهه وتدوس رجليه.

التمرجي سبب كل شيء، شتم مريضة، زوجها وأهلها ضربوه، فأحضر معارفه وأصدقاءه ليقفوا إلى صفه..

انتصب نجيب، حاول أن ينفلت، النقود سقطت من جيبه، أسفل الأقدام الكثيرة، رآها، مدَّ يده إليها لينتشلها، لم تصل يده، سقط على الأرض مطروحًا على بطنه، تاهت النقود عنه، ضاعت منه، ثم لمحها، زحفت إليها، أيادٍ كثيرة على الأرض تسعى إليها، تتصارع وتتنافس من أجل الظفر بها..

فقد النقود التي باع بها الأثاث، أصبح مُفلسًا بجدارة، لماذا يا أبو حنَّة، لماذا!

شعر بحاجته إلى حمام دافئ، وضع قدْرًا مملوء بالماء على النار، انتظر حتى تصاعدت ذرات البخار من القدْر والتصقت بسقف المطبخ.

ليس معه نقود، كلما أراد الاقتراب من الحقيبة، كانت تهجم عليه

بالشتائم فترده، سيمد يده إلى الناس ليقرضوه، يذهب إلى أبي حنَّة ويطلب منه سُلفة، ليس على المرء أشد ألمًا وإذلالًا من فكرة القرض، مع أنها تحل الكثير من العقد، إلَّا أنها في حد ذاتها مشكلة.

جمع الكُتب التي على الكوميدينو، نحو عشرة، كان قد انقطع عن القراءة لفترة طويلة، لكنَّه رجع إليها بعدما طلَّق سلمى، نزل بها إلى مكتبة تبعد شارعين عن الشارع الذي يسكن فيه، باعها بثمانين جُنيهًا.

وعلى مدى أيَّام، كان يرد الكلمة بالكلمة والفكرة بأخرى ضدها، غرق في تناقضات وانفصام، صداع وأرق، كان إذا قصف كل أفكاره، وجعلها رمادًا، خرج له من رمادها نبت جديدٌ ليترعرع ويكبر بسرعة. كاد رأسه ينفجر من شدَّة ما هو فيهِ، تداخلت الأفكار في رأسه مثل أشكال بلا معنى عشوءها طفلٌ في كراس رسمه! المعطف والحقيبة لا يفارقانه، يستقبل صوتهما على أنَّه مقزز، وأنهما، مثل زنابير خبيثة تدس طنينها في أذنه، البشر جميعهم ماكثون في رأسه يصرخون، احتال إلى أسطوانة غاز مثقوبة، وهذه الحقيبة شعلة النار التي ستنسفها.

وصل به الأمر إلى بكاء مكتوم، ودمع يفيض من عينه بغزارة، إلى صراخ مُستغيث، وتحطيم كل شيء يقابله. أفضل مكان من الممكن أن يذهب إليه، ليجد أُناسًا على شاكلته، مستشفى المجانين، كلهم هناك يتحدثون عن أشياء لا وجود لها، لا يعرفون ماذا يُريدون، موضوعون

بين أنامل وحش عُملاق يتلاعب بهم وإذا شاء ضغطهم ليذوقوا الآلام، الساعات فالأيام تمر لا يشعر بها، جعلته في غفلة ومرَّت.

ظل شاردًا بائسًا بين جدران شقته، لا يغادرها.

أبو حنَّة يشتري الطعام كل يوم ويضعه أمام الباب، ويكتب كل شيء اشتراه في دفتر ليحاسبه عليه بعد ذلك. لم يعد يطرق مثل الأول، لأن نجيبًا لم يعد يفتح.

تبدَّل شكله، نمت لحيته السوداء بغزارة، وتلوى شعره المجعد فوق رأسه. في كثير من الأحيان يسمعه أبو حنَّة يتكلم في الشقَّة، فيمتلئ منه رعبًا، لأنّه يعرف أنّ نجيبًا يعيش وحده، ضربَ يدًا بيد وهو يقول من وراء الباب:

- «هي الدنيا، لا يبقى شيء على حاله، إمَّا فقد عقله، أو تعيش معه جنّية، ألف خسارة يا بشمهندس نجيب».
- «تعيش معي جنّية».

قالها بصوت وصل إلى أذن بواب عمارته، الذي كان يلصق أذنه بالباب، وأردف:

- «جنَّية يا أبو حنَّة، وقِفْ عن التنصُّت، هذه ليست أخلاقك».

صار كسولًا، بطيئًا، وغالبًا ما كان يراهما أمامه، التوأمان المُرعبان، الذي إذا حضر أحدهما حضر الآخر، الاكتئاب الحاد والانتحار، على

جدران الحائط أو متعلقان في السقف أو يزحفان على الأرض، بشكلهما المُخيف المُفزع، وإذا غفل، يجثمان على صدره بجميع أثقال المهمومين.

فكَّر في إلقاء نفسه من النافذة، ارتدى المعطف أولًا ومن ثمَّ حمل الحقيبة معه، أراد لهما نفس نهايته، استصرخاه وتوسلا إليه ألا يفعل، لم يهتم بتوسلاتهما، جرَّ كرسيًا، كانت النافذة مفتوحة، الكوميدينو تحتها، صعد على الكرسي ووقف فوق الكوميدينو، النافذة أمامه، يسكن في رابع طابق، الشارع أسفله، إذا سقط سيموت في الحال، خطوة واحدة إلى الأمام سيسقط بجسده في الشارع، المعطف والحقيبة يصرخان فيه، ويناديان أبا حنّة، والجيران، وكل المارة، لعلَّ أحدًا يجعل نجيبًا يعدل عن قراره. لا أحد يسمع صوتهما، أغمض عينيه، وسدَّ أذنيه بكلتي يديه حتى لا يصله الصوت، لكن لم يكن ذلك مُجديًا، استمر صوتهما يتدفَّق إلى أذنه من وراء يديه، يأمرانه بالانسحاب، وإغلاق النافذة، اقترح عليه المعطف أن يختفي من حياته إلى الأبد إذا أغلق النافذة، ولم يصدق نجيب كلامه، واستغرب من مدى الخوف الظاهر في نبرات صوتهما المرتجف، هل تموت المعاطف والحقائب إذا سقطت من أعلى، هل لها عظام ستتكسّر!، سأله المعطف عن وصيته، فقال:

- بعدما أموت، وأدفن، ثم إذا رأيتم ثعبانًا يخرج من قبري، أو يحوم حوله، لا تدعوهم يقولون إن الثعبان علامة على أني كنتُ

رجلًا سيئًا، بل اذهبوا إلى الرجل المسؤول عن تنظيف المقابر وحمايتها من الثعالب والثعابين، حاسبوه لأنَّه ترك ثعبانًا ينفذ إلى قبري ويعبث بجثتي! إنّه هو السيِّئ وليس أنا.

سقف النافذة يصل إلى نصف بطنه، انحنى قليلًا ومدَّ نظره من النافذة إلى الشارع، أخرج رأسه بشكل كامل، ماذا إذا انفلتت قدمك يا مسكين، يقولون: إنَّ رأس الإنسان أثقل ما فيه، قد تفقد توازنك، وستموت يا نجيب، قال المعطف ذلك، وطالبه أن يتخيل أبى حنَّة وهو يسمع صوت ارتطامه بالأرض، ومن ثم يذهب إلى مكان الارتطام فيلقى جثته وقد تحوَّلت إلى أجزاء، فيبدأ مع الجيران في تجميعها في مكان واحد، وتغطيتها بورق الجرائد مثلما يحدث في الأفلام، فيحمر الورق من فيض الدماء التي تخرج من كل مكان في جثته، وزاده المعطف من هذا الكلام، أراد به تخويف نجيب، وقد حدث له ما أراد، ونجحت خطته التي أتمَّها ببراعة، تقهقر نجيب إلى الوراء، وأثناء ذلك، تعثرت إحدى قدميه، فسقط على أرض الصالة.

مرَّت أيام أخرى، وتعددت سقطاته..

وجد نفسه على سريره، وحوله أناس غريبو الوجوه، ثمانية أو يزيدون، تعرَّف على بعضهم، أبو حنَّة، وطبيب الجلدية، والتمرجي. الطبيب يتحدَّث إلى أبي حنَّة، يُطمئنه بكلمات مقتضبة وابتسامة هادئة،

كلامهما عن نجيب، عرف نجيب بعد ذلك أنّ أبا حنَّة وجده مطروحًا على الأرض، أمام عتبة الباب، نصفه السفلي داخل الشقة والعلوي خارجها، فاقدًا وعيه. فأسرع إلى الطبيب، أحضره في عجالة، وأحضر معه التمرجي وجميع المرضى.

***

نهض، فتح درج الكوميدينو، أخرج ماكينة حلاقة من النوع الرديء، حلق لحيته الكثَّة، مشَّط شعره، صبَّ لنفسه كوبًا من العنَّاب الساخن، وقف في نافذة الصالة، الساعة تجاوزت العاشرة مساءًا، الجو يحمل برودة في أرجائه، والسماء تُرسل بعض النور المتقطع إلى نافذته الصغيرة. مسَّه شعور بأن هذا النور المتعرِّج تبدَّل درجًا ليطلع بروحه إلى الأعلى. كان في حاجة إلى شعور مثل ذلك لينزع عنه تحيُّره واضطرابه.

وجد أنه مُقبلٌ على مأساة، وسيعود أسوأ إذا لم يضع حدًا للحقيبة.

يجب أن يعثر على الحل الآن، ليس في وقت آخر.

يريد المال، هذه الخلاصة، في داخله شيء يرفض، شيء يصدق كلام المعطف والحقيبة، سيقتله، أو على الأقل يبدأ في ترويضه، يجعله في طوعه، لا يأبى أو يتكبَّر أو يرفض أو يشتمه أو يهدده بالقتل، قرر ذلك، وعزم على تنفيذه، ليس أمامه سبيل آخر أو يعود إلى النافذه ليحاول إلقاء نفسه مرّة أخرى، لكن أين أول الطريق، فكَّر، عصر ذهنه، أين بداية الخيط.

وضع مرفقيه على الطاولة، دس رأسه بينهما، هزَّ رجليه في توتر وضرب بأصابعه على الطاولة مُحدثًا دقات تُشبه دقات الساعة، هزَّ رأسه ببطء وطرق بذقنه، رأى أنَّه ليس من حل إلَّا أن يكون لصًّا حقيقيًا، هذا ما وصل إليه، هزّ رأسه كأنه يستقبل الوحي، فكَّر، الشخص الوحيد القادر على أخذ الحقيبة في الحال لنفسه، حتى وهو يعلم أنها ليست حقًّا له، هو اللص، لذلك قرر أن يكون لصًّا، لأنَّ اللص لديه خواص تجعله لا يندم على ضرر يحدثه لإنسان، اللص لا يُفكر سوى بفكرتين، كيف يسرق ويهرب دون أن يُوقِع به أحد، وكيف ينتفع بما سرقه دون قلق، أمَّا الرجل العادي، فلا يُفكِّر سوى في فكرة واحدة متعلَّقة بالشخص الذي سيسرقه، ماذا عنه! وماذا عن العالم إذا أصبح كل ما فيهِ لصوص.

ملامح أولى للفكرة بدأت تتشكل في رأسه.

إذا أراد الحقيبة، يجب أن يكون لصًّا أولًا، لا حلًا آخر.

اتضحت أكثر.

حينئذ ستنمو داخله صفات اللص التي ستمكنه من قطع لسان المعطف والحقيبة، سيكون باستطاعته ترويض ضميره، أو قتله، بعد ذلك يعود إلى الحقيبة وينفق النقود في سعادة.

تجدد السؤال في إلحاح، من أين يبدأ، وكيف يفعلها.

هل ينزل بنفسه إلى الشارع ويخطف أي شيء في طريقه ثم يهرب! لا يمتلك الجُرأة التي تدفعه لذلك، أو الخبرات. ستكون نهاية غبية لرجل أحمق، وليست بداية.

يحتاج إلى من يقف إلى جانبه، يُعلِّمه كيف يُصبح لصًّا..

***

أربعة أيّام قضاها إمّا راكبًا أو منتظرًا في محطَّة، صار له أصدقاء جُدد الحافلات وصوت المحرك ورائحة البنزين وضجيج الناس، حفظ وجوه السائقين، وقاطعي التذاكر، والركَّاب الدائمين. يبدأ رحلته في أرجاء القاهرة مع شروق الشمس، ولا يعود إلى شقته قبل المساء، يتوقف قليلًا عندما يشعر بالجوع، يشتري أي شيء غير مكلف يسد به جوعه، وفي كل مرة يركز عينيه في النساء على وجه الخصوص، يدقق في وجوههن.

التي يبحث عنها أقصر منه ببضع سنتيمترات، ربما ترتدي زيًا محتشمًا وأنيقًا يظهر عليها الاحترام، ويظهرها على أنها من أولاد الذوات، ومن المؤكد أنها تعلِّق حقيبة يد في ذراعها، حقيبة سوداء صغيرة.

وصفٌ دقيق للفتاة التي رآها في «الأوتوبيس» من ذي قبل، اللصة التي سرقت حافظة النقود. لا أحد يُمكنه مساعدته وتقديم الحل غيرها، لا بد أنها في مكان ما وسط هؤلاء الناس، تبحث عن ضحية غافلة لتسرقها.

في اليوم الخامس، دخل مع الركَّاب إلى عربة المترو، الباب لم يزل مفتوحًا، وجهه مُتجِّهٌ ناحية الرصيف، في هذه اللحظة، رآها، تُسرع في اتجاه الباب، تريد اللحاق بالمترو قبل أن يغادر، رأت نجيب، عرفته في ثوان، لها ذاكرة قوية، وقفت تفكر في الذي عليها فعله.

قبل أن يخطو نحوها، بعدت عنه بالمشي السريع، حاولت التخفي وسط الناس، وهو من ورائه ا بالمرصاد، بدأت بالركض، وهو لا ينزل عينه عنها، صعد السلَّم الذي يؤدي إلى خارج نفق المترو. رآها تصعده منذ ثوان، لكنه لم يعد يراها الآن، ستكون خسارة فادحة بالنسبة له إذا ضيعها، سأل الناس عنها، أخبرهم بمواصفتها لعل أحدًا رآها..

صعد أعلى كوبري يمر فوق نفق المترو، يرى الناس جميعهم من مكانه، إلَّا هي، قد تكون اختفت في سيارة وهربت، وزَّع نظره في أنحاء المكان، لم يجدها، اختفت اللصة التي أرهقته، أمسك بالسور الحديدي للكوبري، مد جسده إلى الأمام وهو يصيح:

«أين أنتِ؟!».

توقَّف كل شيء تقريبًا لصوته، الناس ينظرونه في غرابة.

«أريدكِ تعالي تساعديني».

رجل ينظره من تحت الكوبري يسأل رجلًا معه: «سينتحر!؟».

الرجل الآخر: «شباب تافه».

نجيب مستمرٌ في إرسال كلامه بصوت عالٍ:

«أقسم أني لن أوذيكِ، أيام طويلة أبحث عنكِ، إذا كنتِ تريني، إذا كان صوتي يصلك، أرجوكِ أن تظهري، لا أحد دونك بمقدوره مساعدتي».

نظرات ممتلئه بالريبة وسوء الظن من المارة، يتهامسون في حذر عن المجنون الذي يتحدث إلى خياله من أعلى الكوبري، دأب على أن تضعه هذه اللصة في المواقف المحرجة، كرر نداءاته، استمر إلى أنّ..

«ماذا تريد».

كأنَّه سمع ذلك الصوت الدافئ من ذي قبل.

تقف أمامه، اللصة الحسناء، تضع يدها في حقيبتها بشيء من التأهب، تدعي أنَّها تقبض بيدها على مسدس محشو برصاصات تنتظر أيَّ رد فعل أحمق لتنطلق، استمرت في تهديده، تتحدث بثقة، وجد أنَّه ليس من الصحيح مصارحتها بما في نفسه في هذا الوقت، أعطاها عنوان شقته، أخبرها أنه ينتظر زيارتها، فبان رد فعل قاس على وجهها، ضربته بكعب حقيبتها، لولا أنَّه تفادى الضربة بيده لكانت أدمته، أخبرها أنَّه لم يقصد ما ذهبت إليه بخيالها، لا يريدها من أجل موعد غرامي، وأنَّه لديه صفقة ممتازة تتمناها أية لصَّة، وأنَّ مثل هذه الأمور لا يمكن مناقشتها أمام الناس. هدأت قليلًا، أخرجت منديلًا ومرآة

من حقيبتها، أخذت تنظر إلى وجهها في المرآة وتحاول تسوية الكحل الذي يملأ عينيها بالمنديل، عندما تتعصَّب يسخن وجهها ويسيح كحلها، ترجلا مع بعضهما أعلى الكوبري، سألته ما إذا كان يعيش بمفرده أم أنَّ له زوجة تعيش معه:

- «نعم أعيش بمفردي».
- «اممم، يبدو أنّها ستكون زيارة ثقيلة عندما أزور شقتك».
- «لكـــن أخبريـنـــي، لمــاذا ضَرَبْتنـــي بحقيبتــك ولم تضربينـــي بمسدســـك».
- «ها.. لأني لا أحب حقيبتي وأردت التخلص منها بتمزيقها على رأسك».
- «أو لأنّك تكذبين، وليس في حقيبتك مسدس، على كلٍ، بما أنك تريدين التخلص من حقيبتك، إذن هذه بداية جيدة لنا».
- «حسنًا يا..

أخبرها باسمه، وأخبرته أنَّ اسمها ريفال.

مرّ يومان، كان ينتظر قدومها، هل تجيء، قد لا يكون هناك لقاء آخر، من الممكن أنها سبَّته أول ما أدارت ظهرها لتغادر، ربما خافته، تظنه من الشرطة ويدبر لها سوءًا، أو أنَّه رجل شرير، أكثر شرًا منها، فكَّر في كل هذه الاحتمالات.

وضع معطفه في قدْرٍ كبير، ثم جعل القدر على أرضية الحمَّام، أسفل صنبور الماء، أضاف مسحوق الغسيل، قال:

- «حتى لو غسلتك ألف مَرّةٍ ستظل على منظرك المقرف».

صوت المعطف:

- «شكرًا على الشتيمة يا نجيب، من فضلك غيِّر المسحوق لأنّه يفتت نسيجي ويضيِّع لوني.. نجيب.. يانجيب.. لماذا أنتَ شارد».
- «لا تسأل».
- «لن تأتيك يا نجيب، اللصة التي تنتظرها لن تجيئك، حتى لو أتت، هل توافق أنتَ أن تدخل بيتك لصَّةٌ وأنتَ تعرف أنها لصة، تستعين بها في مشكلتك، ما الذي ستفعله لك، كيف ستساعدك!».
- «لماذا ترتعد، هل من الماء البارد، أم تشعر بالخوف لأنّها ستضع حدًا لك، ستسحقك ولن يكونَ لكَ وجود في حياتي».
- «لا أظن أنّك قادر على إيقافي، سأظل أُنكِّد عليكَ بكلامي إلى أن ترجع عن الذي في رأسك، وحتى لو حضرت اللصة ووافقتك فيما تريد، ماذا يجعلك تثق في أنَّها ستمد يدك وتساعدك، أو أنَّها لن تمد يدها إلى الحقيبة وتسرقها!».

- «صه أو مُت بغيظك».

كثيرًا ما رأى لصوصًا، مكبَّلين بالأغلال وحولهم رفقة من العساكر، يجرونهم مثل الخرفان، أو يضربهم الناس في الشارع، لكن لم تعثر عينه على أجمل منها، جميعهم بعيدون الشبه عنها.

هل يغفر الناس لفتاة سرقت بسبب أنها جميلة، كأنَّهم يغفرون لوردة جميلة أن تُصيبهم بشوكتها، على الأقل لا يوثقونها في عمود وسط الشارع وينهالون عليها ضربًا. يعدونها طفلة ويكتفون بصب الألفاظ القذرة والمهينة فوقها، أو ينتقون لها ألفاظًا لا تجرح شعورها المُرهَف، مفترضين أنّ باطنها يُشبه جمالها الظاهري، قد يضربونها فقط إذا كانت تشبه الرجال، لكن مادامت تملك موهبة الأنوثة، فكأن لها صك مغفرة في القلوب، بعض القلوب على الأقل، كل النساء ولدْن وفيهن هذه الموهبة، الأنوثة، فقط يحتجن إلى تدريب ولفت نظر.

لصَّة «الأوتوبيس» تقف على الباب، ترافقها طفلة تُشبهها لا يربو عمرها عن تسع سنوات، قدمتها إلى نجيب على أنّها أختها الصغيرة، ثم غمزت له بطرفها وأخبرته بهمس أنّ الأخت الصغيرة لا تعرف أنَّ أختها «لصّة»، انطلقت تلهو بأي شيء تقابله».

ألقت اللصة عينها بنظرات متقطعة على كل ركن في الشقّة، تراها غُرفة لتربية الدجاج أكثر من كونها شقَّة إنسان يافع، ولأنّها لم تأت لتحاسبه على أنَّه غير منَّظم، جاءت من أجل غرض آخر، صفقة كما قال، لذا توقفت عن توزيع النظرات، وانشغلت بالتفكير في الصفقة.

كان نجيب قد قرر مسبقًا ألا يخبرها بشيء عن الحقيبة، هي في كل الأحوال لصَّةٌ، وإذا عرفت أمرها ستدبر لسرقتها.

سألته في اهتمام عن الصفقة، بدت كأنَّ فضولها يأكلها حيَّةً، يا ترى ماذا ستكون، هل بنك، أم خزنة ممتلئة بالنقود، أم ذهب وألماس، لا بد أن الصفقة تستحق كل هذه الجلبة، كررت سؤالها لكن بوجه حازم متعجِّل، فقال بعدما بلع ريقه متوقعًا أن يتبلَّم وجهها، أنَّه يريد منها تعليمه السرقة، وقد حدث ما توقعه، انزعج وجهها وثار، قامت وشدَّت أختها، اتجهت بها نحو الباب بسرعة. كانت شديدة القلق من أنَّها تتحدَّث إلى رجل لم يسرق في حياته، صوَّرت تواجدها معه وثقتها فيه بالكارثة، لحق بها قبل أن تفتح الباب، وضع جسده أمامها، سألها في فضول عن السبب الذي جعلها تغضب، ترى أنَّ نجيبًا يُمثل خطرًا كبيرًا عليها، لأنَّه لن يحفظ سرَّها، سيجلس اليوم معها فيعرف كل شيء عنها، ثم يؤلمه ضميره غدًا فيذهب ليخبر الشرطة عن كل شيء، أو حتى دون أن يفعل سيفضح أمرها، سيكتشف الناس سرَّها عندما ينظرون في وجهه المخضوض ولسانه المتلعثم، ندمت لأنَّها أصغت إليه من البداية، قالت إنَّ نهايتها ستكون بيديه حتمًا.

- «لن يحدث شيء، أنا غير ما تظنين، لم أضر أحدًا في حياتي».
- «كلماتك تستفزني، توقَّف عن الكلام ودعني أفكر».

هدأت قليلًا، فتحت حقيبتها وأخرجت المرآة والمنديل وتفحَّصت كحل عينها، سألته وهي تتبختر في الصالة عن الذي سيدفعه رجل يسكن في حظيرة، قالتها بهذا اللفظ، حظيرة، لقاء أن تمنحه خبراتها وتجاربها الطويلة، فأجابها بأن شقته هي المقابل، سيتنازل عنها عندما تجعله لصًّا. هزَّت رأسها بهدوء، تزن عرضًا غريبًا من رجل أغرب. مرّة أخرى وزَّعت نظراتها في الشقّة، تفحصتها بعين تاجر خبير، تريد معرفة هل إذا وافقت على العرض تكون أتمت صفقة ناجحة أم ستخسر.

- «هل لديك مكان آخر تعيش فيه».
- «بالطبع، مكان أفضل من هذا بكثير».

كان يكذب، خشي لو عرفت أنه ليس له في هذا العالم مأوى سوى شقته هذه، تتردد، أو تشك في صدق كلامه. فماذا لو عرفت أنه ليس أكثر من مستأجرٍ للشقة، يدفع كل شهر (450) جنيهًا، لو تأخر في الدفع سيُطرد.

نوى في نفسه، بعدما تتم مهمتها معه، يمنحها قدرًا من المال، قدرًا أعلى من ثمن الشقة حتى.

***

يوم جديد..

الساعة 6:35 صباحًا

«يا أبو نجيب.. يا أبو نجيب».

وقفت أسفل البيت تُطلق صيحاتها، لو كان صوتها يصدر عن منبه لحطَّمه نجيب في الحال، استمرَّت، صحا، نظرها من نافذة الصالة وهو يفرك عينيه المملوءتيْن بالنعاس، لم يتوقع أنها بهذا النشاط، أراد لو يلغ معها الاتفاق ويعود إلى سريره.

«اهدئي.. نازل نازل».

ارتدى معطفه..

صوت المعطف:

- «يانجيب».
- «نعم».
- «يامنجبش ها ها ها ها».
- «تُهزِّر معي يا ثقيل الدم».
- «اخلعني لو تقدر».
- «سأتجمَّد من البرد، كل ثيابي الأخرى خفيفة، ولم يعد بمقدوري شراء معطفٍ بديلًا، تعرف أني أحتاجك فتذلني يا ندل».

- «نعم أذلُّك، وأستغل الموقف، أنا صعب، أنا جبّاار».
- «قريبًا سأكون لصًّا، وثريًا، وسأحرقك، أعدك».
- «أنا خائف، نجيب كبر وأصبح مخيفًا يا نااااس هههههه».

عندما نزل إليها، وجدها واقفة مع أبي حنَّة، خشي أن يخطئ البوَّاب فيخبرها عن الشقة، أسرع من مشيه، ركض بجدية، نظر بوّابُ العمارة إلى نجيب نظرة ممتلئة بالأسئلة، ثم همس له، ظنّ أنَّ زواجًا سيقع قريبًا، فأسكته نجيب وهو يقول: «دائمًا تسيء الفهم»

صار يمتنع عن إعطاء أبي حنَّة مفتاح الشقَّة مثل مرّات سابقة، رأى أنّه ليسَ من حق أحد الدخول إلى الشقة في غيابه مادامت الحقيبة هناك.

ريفال، يا لصَّتي الحسناء، يا معلِّمتي، إلى أين تأخذيني، كيف نبدأ..

انتقلت به إلى محطة المترو وعدد لا حصر له من البشر، ستبدأ معه أول دروسها العملية في السرقة. حددت له زاوية داخل المحطة جعلته ينتظرها عندها، يصعب على كاميرات المراقبة المنتشرة رصد هذه الزاوية، تعرف أماكن الكاميرات ومدى كل واحدة منها. أشارت له بطرفها إلى هاتف ثمين في يد رجل ينتظر وصول المترو، تركته وتحركت خطوات، كانت تغطي نصف وجهها بنظارة شمسية، حضر القطار وبدأ الناس يتدافعون للركوب، لم تتحرَّك من مكانها، كأنَّ قطارها الذي تقصده لم يصل بعد، وبخفة يدها، استطاعت أن تُسلب الرجل

هاتفه في لحظة عندما مرَّ بها مع غُمرة من الناس. وعلى سبيل إشراكه في المغامرة، اتجهت نحو نجيب، وضعت الهاتف المسروق في يده، اعتراه توتر وقلق شديدين، انتفض، رمى الهاتف في الأرض، أمام الناس.

من فورها غادرت المكان، لم تنظر إلى الأسفل حيث الهاتف، أو إلى أي أحد، هربت بسرعة قبل أن يورطها هذا الأخرق، كما رأته، في مأزق كبير.

تقابلا مرّة ثانية، أثقلت كاهله بلوم غير مهذَّب، زعقت في وجهه، أحبالها الصوتية كانت تصرخ: الرحمة يا ريفال. ندمت لأنها سمحت لنفسها مساعدته، أخبرها أنه خطأ غير مقصود، وأن الهاتف سقط من يده رغماً عنه، كان يكذب، وكانت تعرف أنَّه يكذب، نعتته بالجبان، بدأ كحل عينيها يسيل، أخرجت المرآة ونظرت، استمرت في هيجانها، فثار في وجهها وبادلها الصوت العالي، غادرها وهي لم تزل في مكانها ترسل إليه نظرات مفعمة بالغيظ.

عاد إلى شقته، دفع الباب بقوة، تركه مفتوحًا، لم يهتم بشيء، عقله مشغول بريفال التي أهانته، رأى أنَّه أخطأ عندما بحث عنها وأوكل لها هذه المهمة، رأى نفسه من الأشخاص الذين لا يمكن جعلهم لصوصًا، تذكر ما فعلته زوجته معه من قبل، سبَّ النساء كلهن.

أخرج الحقيبة من تحت الكنبة، أحيانًا يضعها تحت الكنبة أو تحت

السرير، ويعدل من مكان نومه، مرَّة على سريره، ومرّة فوق الكنبة عندما تكون الحقيبة تحتها، ومرَّة على البلاط. وضعها على الطاولة التي في الصالة، دار حولها غارقًا في التفكير.

سمع وقع أقدام يقترب من الباب المفتوح، لم يكن عليه نسيان إغلاقه، بسرعة أرجع الحقيبة تحت الكنبة. ريفال تقف على الباب، جاءت لتقدم اعتذارها، قالت إنها كانت قاسية ومنفعلة جدًا. المسألة في عقل نجيب لها معنى غير الإحساس بالذنب، رآها تكذب في ذلك، إنما الذي دفعها للاسراع في إصلاح خطئها، من وجهة نظره، هو مخافتها من ضياع الشقَّة في حال فشل الاتفاق. لديه قناعة بأنَّ ريفال، مع ما تبديه من استكانة وخضوع، كاذبة، خادعة، لا يُمكن الوثوق بها.

دخلت شقته فجأة، لاحظت في تصرفه ارتباكًا أول ما رآها، لم يكن هذا إلّا مخافة منه أن تكون رأته وهو يضع الحقيبة أسفل الكنبة، حتى لو كانت رأته، فما الذي يضيره والحقيبة مغلقة، ستقول: رجل داخل شقته يضع حقيبته في مكان ما، هذا ما كان يجب أن يصل إليه بتفكيره إذا لم تكن أحدثت له الحقيبة شيئًا من عدم التوازن والاضطراب. ولما رأت الارتباك على وجهه، حسبت أنَّ امرأة معه في غرفة النوم، وأنها حضرت في وقت غير مناسب. لمَّحت له بذلك في كلامها، وفهمها.

دفع باب الغرفة المشبوهة فجأة، فظهرت خالية أمامها، لم ينطق ببنت شفة، تركها تفهم بنفسها.

حكى لها عن زوجته والسبب الذي دفعها للطلاق، قالت إنَّ زوجته محقَّة فيما فعلت، وأنّها، أي ريفال، لو كانت مكانها لفعلت مثلها. ثم سألته عن السبب الذي جعله يريد التحول إلى لص، أجابها بطريقة أوحت لها أنَّه يحاول الهرب من السؤال: «شيءٌ في شقتي أريد سرقته» عبارته مبهمة لا توضح شيئًا يمكن لريفال استنباط منه إجابة، فهمت أنه لا يريد إخبارها بما في نفسه، لم تلح عليه، تركته حتى يأتي اليوم الذي يخبرها، كانت واثقة من ذلك.

يوم جديد..

أثناء ترجلهما معًا في الشارع، دوى رنين هاتف من حقيبتها، استمر في علو..

تجاهلت كأنها لا تسمعه، هذا الرنين بالذات سمعه نجيب من قبل مرّات، يُشبه رنين هاتف أبي حنَّة، وضعت يدها في حقيبتها لتخرسه. من حركة يديها السريعتين، وارتسام القلق على وجهها، تمخضت في عقل نجيب فكرة، هل تكون سرقت بواب عمارته حقًا!

استردَّه منها بمشقَّة.

توقفت به عند مطعم زارته فيما قبل على أنَّها زبونة، غرضها من

زيارتها الأولى حفظ معالمه ووضع خطَّة مناسبة لسرقته. لا توجد كاميرات مراقبة في الداخل أو الخارج. أقل وجبة تُقدّم تزيد عن الألف جنيه. دائماً الطاولة رقم خمسة تكون مميزة. يُمكنك شرب مشروبك وتأجيل الطعام إلى أن يحضر باقي أصدقاؤك.

في هذه المهمّة، ليسَ لنجيب أي دور، أرادته أن يشاهدها ويتعلَّم فقط، هذا إذا كان يُريد أن يصبح لصًّا، ومحتالًا أيضًا. أمرته بالدخول إلى المطعم قبلها، يجلس ويطلب مشروبًا، وإذا وجد الطاولة رقم خمسة ممتلئة يعلم أنَّ الخطة ستنفَّذ، إذا وجدها خاليه لا يجلس ليشرب مشروبه، لأن الخطة ستكون ملغية. انتظرته في الخارج بضع دقائق، عندما تأخر عرفت أنّه بذلك يخبرها أنّ الطاولة ممتلئة.

دخلت، اتخذت لنفسها طاولة مختلفة عن طاولة نجيب، وبعيدة عن الطاولة الهدف.

طلبت كوبًا من عصير البرتقال.

عائلة مكونة من رجل وامرأة وطفلين تجلس إلى الطاولة الهدف، أمامهم ما لذ وطاب من الطعام، لا شك أن ما سيدفعونه كثيرًا، كثيرًا جدًا. جاء النادل بعدما شبعوا، قدَّم لهم عصيرًا كانوا قد طلبوه.

اتجهت ريفال نحو نادل يقف عند البار، طلبت منه بشيء من اللطف والأدب، والأنوثة العارمة أيضًا، السماح لها، بشكل مؤقت،

أن تمثل شخصيته، أي تصبح هي النادل بدلًا منه. أشارت له صوب الطاولة الهدف، قالت إن هذه العائلة أصدقاء لها ولم ترهم منذ فترة طويلة، وتريد الظهور أمامهم بزي النادل على سبيل المفاجأة.

لم يفكر النادل طويلًا، همس لبعض زملائه الذين شجعوه على الفكرة، تنازل لها عن المريلة التي يلفها حول وسطه، ودفتر الفواتير أيضًا، اتجهت في هيئتها الجديدة إلى الزبائن.

أول ما وقفت أمامهم صاحت في سعادة، قفزت من فرط سعادتها المزيفة، قبَّلت المرأة والأطفال في حرارة وسلَّمت على الرجل. لم تفهم العائلة، شعروا أنهم في مأزق، أو ربما المطعم يحضر لهم مفاجأة لأنهم من الزبائن المهمين. تقبَّلوا سعادتها بسعادة حقيقية من عندهم. النادل وأصدقاؤه، ونجيب أيضًا، يتابعون المشهد المفعم بالسرور، نجيب فقط يعرف أنَّ وراء الأمر مكيدة.

سحبت ورقة الحساب الخاصة بالطاولة، وضعتها أمام العائلة، بين الأطباق حتى لا يرها النادل وزملاؤه. نظر الرجل في الورقة، ثم دفع (1250) جُنيهًا، وقفت أمامه وهو يُخرج النقود كي لا يرى ذلك أحد من العاملين في المطعم.

الحساب المدوّن (1200) فقط، الخمسون جنيهًا بقشيشًا لأنها غمزت له بطرفها!

رجعت إلى النادل الحقيقي، أرجعت إليه أشياءه، دفعت ثمن عصير البرتقال الذي شربته وغادرت.

كل شيء حدث بسرعة.

خرج لها نجيب في وقت قليل.

علامات عدم الرضا تظهر على وجهه، لاحظت ريفال ذلك..

طلب منها جعله يرى النقود التي سرقتها، أعطته إيَّاها وهي غير مطمئنة.

ترجلا معًا، تظاهر نجيب وهو يتحسس جيوبه في قلق، بسقوط النقود منه. صرخت ريفال بجنون، هرولت إلى كل بقعة مشيا بها، لم تجد شيئًا. ضاعت النقود، وكالمرة الأولى، وقعت بينهما خناقة كبيرة، هي التي بدأت بالمغادرة هذه المرة، وتركت نجيبًا واقفًا بمفرده في الشارع.

كل ذلك استغرق من دقيقتين إلى خمس دقائق في أعلى تقدير.

رجع إلى المطعم، وقفَ على مسافة منه، مرَّ به أشخاص كثيرون، دقق فيهم واختار شابًا أنيقًا بوجه طيِّب، أعطاه النقود على أن يسلمها إلى النادل، وافق الشاب مرحبًا ودخل أمامه.

خرج بعد أقل من دقيقة، وزّع نظره ليتأكد أنّ نجيبًا قد انصرف، ولما تأكد، أخرج النقود وأخذ يعدها مغادرًا بها!

كان يشتم الأبله الذي وثق فيه!

***

يقف في النافذة، يرسل نظرات حاقدة إلى أبي حنَّة الذي يجلس على مصطبته..

صوت المعطف: «مساء الخير يا حاقد، تحقد على أبي حنَّة، الرجل الطيِّب الذي يحبك، لأنه ينعم براحة البال وأنتَ لا، تمنى له الزيادة يا نجيب كن طيبًا مثله، أتعلم أنَّك بمقدورك أن تصبح مثله، مرتاح البال مطمئن النفس، كل ما في الأمر أنَّه لا يسجن حقيبة في شقته مثلما تفعل أنتَ، كن مثله وستجد الراحة يا نجيب».

يتجاهل..

صوت الحقيبة من أسفل الكنبة: «يا نجيب، يا واد يا نجيب، يا نجيب بيه، يا باشا نجيب، يانجيبو، ياسيدي نجيب».

يتجاهل..

صوت المعطف: «الحقيبة تناديك، لماذا لا تذهب إليها».

تجاهل..

أردف صوت المعطف في إلحاح: «يا نجيب يا نجيب».

فجأة، ثار نجيب، غضبًا، احمرَّ وجهه من العصبية، سبَّ المعطف

والحقيبة، صوت السباب مرتفعً، رفع أبو حنَّة نظره إلى أعلى لينظر نجيب الذي يشتم في النافذة. دخل الصالة، ضرب الحقيبة بقدمه، وخلع المعطف، رماه في عنف على الكنبة، لم يتوقَّف لحظة عن سبِّه، نظر في غل واغتياظ.

سأله: «أين لسانك لأقطعه، من أي مكان يخرج صوتك، هل تتألم، حسنًا لنرى يا ابن ال..»

نزع أحد أزرار المعطف بقوَّة، ألقى به من النافذة المفتوحة، سقط على رأس أبي حنَّة..

صوت المعطف: «هل تظنني أتألَّم يا نجيب، أنتَ الذي تتألَّم ليس أنا، تتألّم لأنّك لصٌّ، أنتَ لصٌّ».

صوت الحقيبة: «نجيب لصٌّ».

صوت جديد يصدر من الطاولة: «نجيب لصٌّ».

صوت آخر يأتي من جهة كوب الشاي المُلقى على الأرض: «نجيب لصٌّ».

صوت يخرج من حذائه: «نجيب لصٌّ»..

أصوات كثيرة، أنثوية وذكورية وطفولية، تنطق في وقت واحد، تتهم نجيب بأنّه لصٌّ، نجيب الذي يقف وسط الصالة لا يعرف كيف يتصرَّف، وجد نفسه يُسرع ناحية الباب، يهرب، يغلق الباب خلفه، ينزل سلمتين..

«نجيب لصٌّ».

كان ذلك صوت يصدر عن الباب!

بعد وقت، بعدما هدأ قليلًا، وبينما كان يجلس أسفل عمارته مع أبي حنَّة، توقَّف أمامهما «موتوسيكل» سائقه يلتحف بالسواد ويضع كل رأسه في خوذة. حرّكَ السائق رأسه ناحية نجيب فعرف أنها ريفال، ركب وراءها ممسكًا بخصرها الناعم، أعطته خوذة أخفى رأسه فيها.

غادر بهما «الموتوسيكل» وسط نظرات دَهشة من أبي حنَّة..

أجبره القلق من سرعتها الجنونية على إخفاء رأسه في ظهرها، والميلان بكل جسده عليها. تخللت السيارات المسرعة، تلوَّت على الطريق كحيّة تتلوّى على فرع في شجرة. انعطفت بذات السرعة عن الطريق الرئيسي إلى آخر فرعي يترجل الناس فيه وتصطفُّ على جانبيه المحلات التجارية.

تمتمت بكلام ..

«هل قالت استعد، استعد من أجل ماذا، ماذا ستفعلين».

خفضت من السرعة، الناس الذين يسيرون على الأقدام أسرع منها، ثم في لحظة، عادت لسرعتها القصوى..

امرأة أربعينية، تسيرُ أمام الدراجة بنحو خمسة أمتار، في ذراعها حقيبة.

هذه هي المهمة، ريفال ستسرق الحقيبة.

- «كان عليكِ أن تخبريني».
- «المفاجأة لها طعم مختلف، أشعر به».

خطفت الحقيبة، انطلقت بها وسط صراخ ولطم من المرأة. غطَّت صيحات نجيب المُستهجنة على صراخ المرأة، كأن ريفال خطفته هو أيضًا، لم يصدق أنه كان جزءًا من هذه المغامرة.

ألقت الحقيبة المسروقة في حجر نجيب المتوتر، أمرته أن يصمت أو سترمي به، هددته في عصبية. شعر بأن رأسه ثقيل، وقدمه تتحرك بشكل هيستري في رمال متحركة تشدُّه إلى أسفل شيء بشيء، وضربات قلبه تتسارع في خوف من موت محقق. يده المتشنجة كادت تتسبب في إفقاد ريفال توازنها وسقوطها من ال «موتوسيكل».

توقفت به في ناحية نائية، خلع الخوذة ورطمها بالأرض، أخرج الحقيبة المسروقة من بين ملابسه وألقاها هي الأخرى، فأفرغتها ريفال من الذي فيها، خمسمائة جنيهًا هي كل شيء.

أسند ظهره إلى جدار متهالك، نظرها بعين ثملة وعقل واهن، مثل الذي بدَّلَ رأسه بزجاجة خمر. لم يكن من الصحيح أن ينتظرا كثيرًا، دوريات الشرطة ستدركهما في أي وقت، أمرته بشيء من السلطوية أن يركب وراءها ليغادرا في الحال، أطاعها كاتمًا تغيظه بصعوبة.

***

في الساعة الواحدة صباحًا وبضع دقائق، دوى جرس الباب، الزائر فوزي وحمودي ورجب، الزملاء الثلاثة، كانوا في حفل زفاف شقيقة ميكانيكي الحوش، وكان الحفل على مقربة من بيت نجيب، لذا أتموا زيارتهم في هذا الوقت المتأخر من الليل.

بيد أنَّ فوزي، الذي يُشبه الفيل الصغير، كان قد التهم بمفرده الجزء الأكبر من الطعام الذي قُدم في الحفل، إلّا أنَّه، أول ما دخل شقة نجيب، اتجه مباشرة، وبنحو من النهم والشراهة، إلى الثلاجة ليبحث عن أيّة وجبة يضعها في بطنه التي لا تشبع.

وجد طبق بامية، كانت لحظات حزينة بالنسبة لنجيب..

حمودي يدخِّن بشراهة، رابع سيجارة بانجو، دخان كثيف خانق، يملأ الهواء، رأه نجيب دخانًا جامدًا لا يتحرّك، يُشبه شبكة صيد محكمة أنشأتها عناكب بخيوطها فأحاطته بها كي تصيده، فتح النافذة كي لا يختنق.

وكان أبو حنَّة كعادته، يقضي ليله على مصطبته، فشاهد الدخان المنبعث بكثافة من النافذة، تأكد له أنَّه دخان مخدرات، وأنَّ الأشخاص الثلاثة الذين صعدوا منذ قليل إلى نجيب، هم رفقة السوء الذين سيخسفون به الأرض.

سألوه عن أحواله، كيف يعيش وماذا يعمل، أحدهم طالبه بتقديم

اعتذارٍ لصاحب الحوش ليغفر له فيرجعه إلى وظيفته. وثانيهم حدَّثه عن البدلة الفاخرة، والثالث حكى له عن رد فعل صاحب الحوش بعد «الخناقة».

عندما كان نجيب يقف في المطبخ يصب لهم الشاي، اقترب منه رجب، وشوش في أذنه بكلام، ثمّ وضع 100 جنيهًا قطعة واحدة في يده، قبلها على مضض.

أمس، فعل معه أبو حنَّة نفس الشيء، لكن وضع في يده 50 جنيهًا فقط.

150 جنيهًا الآن في جيبه، مع 35 جُنيهًا متبقية من صفقة الكُتُب، فيكون مجموع ما معه 185 جُنيها، لكن ما الذي يُمكن فعله بهذه النقود القليلة، يحتاج ضعفها ليدفع إجار الشقَّة، وكان قد رفض أخذ حصَّته من سرقة المرأة التي شارك ريفال في خطف حقيبتها. أبو حنَّة، بصفته المسؤول عن تحصيل الإيجار، وتحويله إلى مالك العمارة، قال إنَّه قد يغفر له إذا تأخر في الدفع شهرًا، شهرًا واحدًا فقط.

بسبب جلسته الملتوية، امتدت رجل حمودي إلى أسفل الكنبة التي يجلس عليها، ارتطمت بالحقيبة. فانبطح على الأرض ليرى الشيء الذي كاد يتسبب في كسر كاحله. رأى الحقيبة، وضع يده على جزء منها، تفحصها بعين تاجر، ثم طلب من نجيب، الذي كان في المطبخ يحمل صينية الشاي متجهًا بها إلى الصالة، أن يبيعها له.

نظر، وجدها بين يدي حمودي، شعر بالخطر، هرول إليها وفي خطوته ارتباك فاضح، جعل صينية الشاي تسقط على الأرض بما فيها. انتشل الحقيبة وأدخلها غرفته ثم أغلق الباب، قال لضيوفه إنَّ بها متعلقات تخص طليقته.

استمرت سهرتهم إلى طلوع الفجر، ثم غادروا الشقة تاركين نجيب غارقًا في نومه.

بعد وقت، صحا فتح عينه ببطء، كان أكثر كسلًا من كل يوم، حاول تحريك يديه، رجليه، أجزاء جسده كانت تتمرد، ترفض أمره..

مطروحًا على بلاط المطبخ، عيناه مفتوحتان على السقف، هو في الأساس لا ينام في المطبخ، نومته على الكنبة التي في الصالة، أو على سريره.

كمامة لاصقة على فمه تمنعه عن الكلام، وحبل يغل يديه ويضمهما في صدره. ألم في رقبته وظهره، شعر أنه معلَّق في السماء، لا يعرف كيف ينزل إلى الأرض أو كيف يحُلِّق. أُضرمت في أعماقه شعلة من القلق. شدَّ عزمه، حاول تخليص نفسه مما هو فيه، يزحف، يصيح بهمهمات مسُتغيثة، من يسمع، من يرد، استمر زاحفًا على بطنه، وجنبه، يمط رجليه ويضمهما، بمشقَّة وصل إلى الصالة.

كان المعطف مُعلّقًا على باب غرفته: «يامسكين يا نجيب، من فعل

بك ذلك، لعلَّك الآن تقول إنَّه من المفروض أن الإجابة عندي، لأني مؤّكد رأيتُ كل شيء من مكاني، نعم رأيت يا نجيب، ولن أخبرك، لأنَّك بالأمس نزعتني عنك وتوسَّلت إلى حمودي كي يستبدلني بمعطف آخر، وشتمتني أمام أصحابك، تشتمني أمام غريب يانجيب، أهون عليك، تحرجني وتجرح كرامتي أمامهم، كانوا يهزؤون مني وأنتَ تضحك لهم، لن أسامحك، وإذا سمحت، عندما تنهض، أنزلني من على الباب، أنتَ نسيت النافذة مفتوحة والهواء ظلَّ يدفع الباب طوال الليل، لم أسقط بعد، لكن قد أسقط في أية لحظة. أريد إخبارك شيئًا هامًا، لن تُسَرَّ لسماعه، إنَّ الذي يحدث لك الآن يا نجيب، متعلِّقٌ بالحقيبة!».

انفكَّ بعض من عقدة الحبل الذي على صدره، استطاع بصعوبة ومشقَّة أن يتسنّد إلى الجدار، وقف على قدميه، بدأ بالقفز مثل الأرنب، وصل إلى باب الشقة المُغلق، وضع يده على القفل، فتحه، أصبح في الخارج، فقد توازنه، تدحرج على دركات السلَّم ككرة بلياردو.

أبو حنَّة وتمرجي العيادة مع بعض من الجيران سمعوا الضجَّة، هرولوا إليه وساعدوه، أعادوه إلى شقته بعدما أزالوا عنه الحبال والكمامة، أصيب بكدمات في وجهه وسجعات في ظهره وذراعيه.

الحقيبة!

دخل الغرفة، نظر أسفل السرير، لم يجد الحقيبة، عاد إلى الصالة،

انبطح على الأرض، نظر أسفل الكنبة، ركَّز عينه قليلًا، ظل مستلقيًا على الأرض وعينه مشدوهة أمامه، يسأل نفسه، هل الذي أفكر فيه حقيقي. قام من فوره وجرى في أركان شقته يفتش في كل مكان من المحتمل أنه نقل إليه الحقيبة في وقت سابق، يُمكن أن يكون قد نسي أين وضعها، الضغوط على رأسه والتفكير الكثير ربما أثر على ذاكرته.

خوف شديد وتوتر يظهر في كل تحركاته غير النمطيَّة. صرخات مدوِّية اخترقت جدران شقته، من الممكن أن يسقط السقف فوق رأسه من شدة الصوت. جنون بيِّن في تصرفاته، من الفاعل، من سرق الحقيبة، وكيف حدث ذلك، لا يُمكن لهذا أن يحدث.

حاول أبو حنَّة والتمرجي ومن معهم فهم شيء، أرادوا تقديم المساعدة، محاولاتهم باءت بالفشل، اعتقد أبو حنَّة أنّ دخان الأمس الكثيف تسبب في ضياع عقل نجيب بكل تأكيد، همس للتمرجي بذلك ثم غادر الشقة مع التمرجي والجيران.

صوت المعطف، لم يزل معلَّقا بالباب:

- «أنتَ الآن..».

نجيب مقاطعًا:

- «اخرس، لا أريد سماع صوتك».

فكرة واحدة في رأسه، لا غيرها. المتهم بالسرقة واحد، أو ثلاثة،

أصابع الاتهام تُشير إليهم، زملاؤه الثلاثة، كل ما يتذكَّره من ليلة أمس، أنّهم زاروه في وقت متأخر، قضى معهم وقتًا من الحديث. ثم نام في مكانه، ليستيقظ وهو على هذه الحال. لا شك أنَّهم أسقوه شرابًا مُخدرًا، أفقدوه وعيه، ثم فتَّشوا منزله عن شيء يسرقونه، فوجدوا الحقيبة، هذه الحكاية ببساطة. أو حمودي، يكون ارتاب في الحقيبة، فمدَّ يده إليها بعدما نام نجيب، لم يكن يعرف بما تحتويه، لكنه لما عرف اتخذها لنفسه من دون تردد وهرب بها وحده، أو تقاسمها معهم. كان من الممكن الاعتماد على حمودي، أو عليهم، بدلًا من ريفال. لديهم الموهبة أيضًا في السرقة. ومن الممكن أنَّهم سرقوا الحوش من ذي قبل، أحيانًا يكون العجز المالي عندما يحين وقت الجرد كبيرًا. لعلَّهم اتفقوا على ذلك فيما بينهم، ثم يتظاهرون بالبراءة، ليكون نجيب خروف إبراهيم، وهذه الثياب التي يبيعها حمودي، ويدَّعي أنّه اشتراها مُستعملة ليبيعها، هي أيضًا، بكل تأكيد، مسروقة. كل هذه أفكار تراصت في عقل نجيب.

في وقت قليل، وصلَ إلى الحوش، اقتحم بوابة الأمن، حاول الحراس منعه، أصبح هناك رجال أمن كثيرين، وأقوياء، ظن نجيب أن صاحب الحوش استقدمهم ليقفوا في طريقه خصوصًا.

أحدهم وضَّح الأوامر الصارمة التي تمنعهم من السماح لنجيب

من الدخول، لكن نجيبًا كأنَّه لم يسمع شيئًا، دفع كل من قابله، انزلق من بين أيديهم، دلف إلى الداخل راكضًا، نال بعض الضرب لكنَّه تحمَّل حتى أصبح في المكتب. هجم على زملائه، ارتسمت في وجه كل نفر من الثلاثة علامات من الدهشة والذهول، أنكروا معرفتهم بسرقة الحقيبة، نزعوا أياديهم من اتهام نجيب لهم بالسرقة، تبادل معهم الشتائم، امتلأ المكان صخبًا وضجيجًا، صاحب الحوش أصبح بينهم، ازداد الأمر توترًا، الأمن، العمَّال، الجميع انقلبَ على نجيب، حملوه وألقوه خارج الحوش، مع التهديد إذا ما فكَّر في تكرار حماقته مرة أخرى.

تعقدت الأمور أكثر بالنسبة له، زملاؤه أنكروا السرقة، وبدأ يشعر بصدقهم، والمعطف، الذي شاهد كل شيء، لا يريد أن يخبره بالحقيقة.

وبدافع الحب والنصيحة، عاتبه أبو حنَّة عتابًا مهينًا على الحال المتردية التي وصل إليها منذ تركه للعمل.لم يشرح له نجيب بالضبط ما الذي سُرِقَ من الشقة، فعرض عليه أبو حنَّة أن يذهب به إلى أحد الرجال المعروفين بصلتهم بالعالم السُفلي، الجان والعفاريت، كي يدله على سارق الحقيبة، فسخر نجيب من كلامه، موضحًا أنّه توقَّف، منذ زمن، عن الإيمان بقدرة هؤلاء الناس على فعل شيء، لماذا لا يربح الدجّالون والمُشعوذون في «اليناصيب»؟ ولماذا لا تستعين بهم الحكومات في حل مشكلاتها، أو تستعين بهم الجيوش في الحروب؟

وعلى سبيل مساعدته في إيجاد السارق، قال أبو حنّة: إنَّ الذين يدخلونَ الشقة هم أول المتهمين بالسرقة، لم يكن يقصد بكلامه الزملاء الثلاثة فقط، شمل قصده ريفال أيضًا.

ريفال!

طرقة واحدة على الباب، أول ما رأته واقفًا على باب شقتها، انكمشَ وجهها، قال وهو لم يزل على الباب:

- «أجمل ما حصلتُ عليه منكِ طوال المدّة الفائتة، عنوان سكنك».

- «ماذا بعد!».

- «حقيبتي أيتّها اللصة، أريدها».

تقبَّلت وجهه الممتعض بشيء من التفهم، اعترفَ وجهها بكل شيء، وفي الوقت نفسه، لم تضع رأسها في الأرض، لم تظهر انكسارًا أو ندمًا على ما فعلته، وقفت قوية ثابته في مكانها. دفعها إلى داخل الشقّة، حشرها بين الحائط وجسده، هددها بنبرة حانقة:

- «أينَ الحقيبة وإلّا..».

قاطعته تقول:

- «أسفل قدمك!».

كانت الحقيبة موضوعة في زاوية الحائط التي يقف فيها، نزل إليها، فتح السحاب، حاول بتقدير منه معرفة إذا ما كانت النقود قد نقصت أم لا، انتصب وحمل الحقيبة على ذراعه.

قالت في بجاحه:

- «لو تأخرتَ خمس دقائق لكنتُ هربتُ بها».

اتهمته بالكاذب، والمحتال الكبير، وأنها بكل خبراتها لا تعد شيئًا مقارنة به، لم يفهم ما ترمي إليه بكلماتها القاسية ونبرتها الحادة، حتى أوضحت له بشيء من التفصيل.

كانت قد عرفت من أبي حنَّة، الرجل الثرثار، أنّ نجيبًا لا يمتلك شقة في العمارة، وأنه مستأجر عادي، مما غير في عينها كثيرًا من الأمور التي كانت تعرفها، تراءى لها أنّ نجيبًا كذّاب مُحتال، وأرادت ردَّ الصفعة له، بأن تسرق شقته، لم تكن تعرف احتكامه على ثروة في حقيبة، كانت تريد سرقة أي شيء.

رأت الدخان المنبعث، وصوت القهقهات، انتظرت حتى غادر أبي حنَّة مصطبته، وخرج الزملاء الثلاثة، حينئذ دخلت الشقَّة مع أول شروق الشمس. وكانت في وقت سابق، قد سرقت من نجيب دون

أن يشعر، مفتاح شقته، أخذت عنه نسخة، ثم بذات الطريقة أرجعته. ولَّما دخلت، وجدت نجيب مستغرقًا في النوم في الصالة، جعلت في أنفه رائحة مخدِّرة، ثم جرَّته إلى المطبخ، وأخرجت من حقيبتها شريطًا لاصقًا كممت به فمه، وقيدته بحبل وجدته في الشقة، بالغت في ربطه، شددَّت على ذلك، لكي تلصق التُهمة بالزملاء الثلاثة. لأنّ توثيق رجل بهذه الطريقة، وسحبه من مكانه إلى مكان آخر، لا يُمكن أن يتأتَّى إلّا من رجل آخر أشد قوة أو رجلين أو ثلاثة.

تحدث إليها بصوت صادق، قال إنَّه كان ينوي شراء شقَّة لها من هذا المال، وأنَّه لم يكن كاذبًا، فحدّثته عن الحقيبة، أرادت معرفة كل شيء عنها، سألته عن صاحبها بعدما عرفت أنّها ليست ملكه، تمتم بكلمات لم تفهمها، رأته متمرسًا في المرواغة، ويلزمها الكثير من الوقت لتصبح مثله، لم توقف أسألتها عن الحقيبة، تريد أن تعرف سر بقائها في شقته.

قال إنَّه عثر على الحقيبة في شقتَّه، لم تفهم، ولم يشرح لها، وقال إنَّه يعرف صاحبها، لم يشرح لها أيضًا، وأنّه محشور بين وسواسيْن كل واحد أصعب وأثقل همًا من الآخر، وكلاهما يجذبانه نحوهما، يريد أخذ النقود لنفسه، لكن لا يقدر، لأنَّ وسواسه الأول ينهيه عن ذلك، ويريد التخلي عن النقود، لكن وسواسه الثاني يقف له بالمرصاد ويصده.

- «لذلك طلبتُ منكِ جعلي لصًّا، جئتك من أجل مهمة قتل وليس سرقة، أريدك أن تقتلي الوسواس الذي يصدني عن التصرَّف في الحقيبة».
- «هراء، أنتَ تكذب، لا أحد يفعل الذي تقوله».

ركَّز عينه في عينها، ثم قال وهو يعض على أسنانه:

- «ليس هراء يا سليطة اللسان».

سألته لماذا لم يرض بجزء من المال ويرجع الحقيبة إلى أصحابها، فأجابها بحدَّة إنَّه طمَّاع، وأنّها تتحدث إلى رجل طمَّاع مثلما يتحدَّث هو إلى لصَّة. وضَّحت كيف أنَّه أرهقها ولن تنجح في تعليمه أبدًا، أنتَ لا يُمكن إلا أن تكون إنسانًا شريفًا، قالت ذلك، فلم يعجبه كلامها. قال: إنَّ كل إنسان جيد يمكن تحويله بسهولة إلى رجل سيِّئ، الأمر لا يحتاج إلى إرادة، لأن الإرادة والعزيمة أشياء تُطلب في التحوَّل من سيِّئ إلى جيد فقط، تكون في الصعود، أمَّا طريق الانحراف والزلات، فهو دائمًا في القاع، والسقوط إلى القاع لا يحتاج سوى التخلي عن كل شيء جيّد.

- «ثم أني لم أعد أحتاجُ إليكِ بعد الآن، أصبحتِ تُشكِّلينَ خطرًا عليَّ، المرَّة القادمة ستحاولينَ قتلي من أجل الحقيبة بعدما عرفْتِ السر».

- «تريد أن تصبح مختلفًا! تظن أنّ امتناعك عن أخذ النقود يجعلك أعلى درجات من جميع الناس، لأنَّ جميع الناس إذا كانوا في مكانك لبددوها دون تفكير، أفق من غيبوبتك يا حضرة المهندس الشحَّاذ».

أخبرها أنَّه نادم لأنَّه وثق في لصَّةٍ، ثمّ غادرها بعدما ألغى اتفاقه معها.

هام على وجهه حاملًا الحقيبة في ذراعه، بدا ليس أكثر من متشرد، وجهه أبله وعيناه مثقلتان بالحزن..

الوقت ليلًا..

بعد دقائق قليلة سيبدأ عام جديد..

وبعد دقائق، سيصبح عمره ثلاثين سنة..

يحسب نفسه من المحظوظين، لأن تاريخ ميلاده يقول: إنّه وُلد في أول أيام يناير، لا يحتاج إلى حفل محدود في غرفة ضيقة يحضره عدد قليل من الأشخاص، الذي يُولد في يناير يحتفل العالم كله بعيد ميلاده، كل سنة يتذكر والده، الذي أراد له احتفالًا عظيمًا كل سنة، فكتب تاريخ مولده أول يناير، على الرغم من أنَّه ولد قبله بأربعة أيَّام كاملةٍ.

مشت به قدماه إلى شارع يكوِّنه صفَّان من البنايات القديمة، كل صفٍ يميل من أعلاه إلى الصف الآخر، ليكوِّنا سقفًا واحدًا مُشتركًا

لشارع كئيب، شذرات قليلة من ضوء القمر فقط هي التي تصل من ثقوب في السقف، وفي منتصف الشارع، تحت عمود إنارة خافت الضوء، يقف رجل عجوز مُتَّكلئٍ على عصا وترافقه امرأة أربعينية ممتلئة، أوقفه العجوزُ بنبرة تهديد، دنا من نجيب مُشهرًا «مطواةً»، ضغطَ عليها بيده المُرتعشة، ليسَ ارتعاشها من البرد، ولكن لمرض مزمن فيها. وبان لنجيب، أنَّ الرجل، من طريقته في الكلام، وحركات يديه، يحاول أن يكون شريرًا قدر المستطاع. فارتسمت على شفتي نجيب ابتسامة، إذا كان الرجل يريد سرقة الحقيبة، فإن الأمر يستحق هذه الابتسامة، لأنَّه ضعيف، وبالكاد يقدر على المشي، وسيضطر نجيب للتعامل معه مثلما يتعامل مع طفل. حتى المرأة التي معه، ليست قوية لتسرق الحقيبة وتهرب بها.

- «هذه زوجتي، اصفعها..».

كان طلبًا مُريبًا، حسب نجيب أنّ الرجل يريد تأديب زوجته بطريقة جديدة، وهي أن يؤدبها رجلٌ آخر، أو هذه الصفعة هي هدية السنة الجديدة التي يريد تقدميها لها.

ولما قابل طلبه بالرفض، أمسكه العجوز من تلابيبه، وقرَّب «المطواه» من وجهه كنوع من الجبر بالترهيب، لم يشعر نجيب بأي خوف، كتم الضحك في نفسه، وكانت الزوجة، كما بدا عليها، موافقة على فكرة الصفع، وتستعد له.

فما كان من نجيب إلا أن لبى رغبتهما.

رفع يده إلى أعلى، ثم أنزلها بقوة على وجه الزوجة، لتمسك وجهها وتنزل إلى الأرض باكية. من السهل معرفة أن كف نجيب ليس كبيرًا بالقدر الذي يحدث كل هذا الألم للزوجة، بل وجعل الرجل يندم على طلبه، إنَّما أتم كل شيء بطريقة تجعل العمل متقنًا إلى أقصى درجة، تحسس جزءًا في صدغها بدقة، عرف أنَّ يده، عندما ستسقط وهي على هيئة قوس قزح، على هذا الجزء بالذات، سيكون الألم أكبر، فأتم ذلك على أفضل نحو.

نزل الرجل بوجه مفجوع، إلى الأرض حيث زوجته، ثمَّ رفع رأسه إلى نجيب وقال حانقًا:

- «ماذا فعلت!».
- «أنتَ أردتَ ذلك وهددتني بالقتل».
- «تكذب، كان بإمكانكَ دفع جسدي الهزيل أيّها المختل السادي، كل ما في الأمر أنَّك أردتَ فعل ذلك وتلذذتَ به، أنتَ مريض في عقلك».
- «لا أفهمك».

قال الرجل شارحًا، أنَّه راهن زوجته على أنَّه ليس من المعقول لرجل أن يصفع امرأة دون ذنب، امرأة لا يعرفها ولم يرها في حياته،

فحاول أن يُثبت لها صحَّة رأيه بأن يطلب من نجيب صفعها، وهو متيقِّن أنَّ نجيبًا، حتى بعد التهديد، لن يقبل.

دنا نجيب من المرأة التي كانت تنهنه بلا توقف، ربت على رأسها ثم اعتذر عما بدر منه. وقال لها هامسًا:

- «زوجك مجنون، لا تدخلي معه في مراهنات مرّة ثانية».

تابع مشيه ..

عاد مُحدَّثه المزعج، الثرثار، صوت المعطف، الذي يجادله باستمرار:

«صفعتها يا نجيب؟ لماذا؟ امرأة وأكبر منكَ لكنك لم ترحمها، أخلصت في تأديتك دورك، لماذا هذا الاخلاص في صفع امرأة لم ترها قط! هل لتظهر أمامهما في ثوب الرجل الجيد الذي يؤدي المهام التي تُطلب منه على أتم وجه!، لا، ليسَ هذا السبب، وليسَ لأنّك خفت من السكين، تعرف أنَّ الرجل وزوجته ضعيفان جدًا، وأنهما معًا لا يقدران عليك. الرجل كان محقًا عندما قال (أنتَ تريد فعل ذلك) تريد إحداث الأذى بالمرأة، أيسعدك ذلك يا نجيب، هل تستمتع عندما ترى غيرك يتألم، هل تختلف هذه المرأة المسكينة عن صاحب الحقيبة يا نجيب، السرقة أيضًا صفعة قوية على وجه الذي سُرِقَ، هل تفهم؟ لا تظن أنَّ هذين الضعيفين اللذَّيْن تسببت لهما في حزن شديد ظهرا أمامك بالصدفة، القدر أرسلهما إليكَ يا نجيب لتتذكر صاحب

الحقيبة، افعل شيئًا يا نجيب أرجوك. افعل شيئًا جيدًا لأعرف أنَّك إنسان، لا تتصور أنَّ سرقة إنسان أمرٌ هيّن، ماذا كان سيحدث لو أنَّ اللصة غادرت شقتها بالحقيبة كما كانت ترتِّب، هل فكَّرتَ في ذلك، احذر منها إذن حتى لا يتكرر أيُّها المسكين».

ضربَ رأسه بيده، ضغط على جبهته، شعر بصداع يفتك به، ركن رأسه إلى جدار وهدأ قليلًا، ثم تابع السير عندما شعر بتحسُّن.

سأل أحد المارة عن الساعة، جاوبه بأنَّها جاوزت الثانية عشر بثلاثين دقيقة.

سنة جديدة بدأت.

وسنة جديدة أضيفت إلى عمره.

لم يكن يريد وضع قدمه في السنة الجديدة والحقيبة معه.

فكَّر، هل يذهب ويبدد النقود التي في الحقيبة بحجة أنَّ «بابا نويل» أرسلها له!

لا، لم تكن حجَّةً قوية.

جلس أسفل شجرة في حديقة صغيرة على جانب الطريق، أسند ظهره إلى جذعها، ووضع الحقيبة بين ذراعيه.. بعد وقت، وضع أحد المارة جنيهًا على حقيبته، فعل ذلك على سبيل التصدُّق على متشرِّدٍ.

رفع نجيب الجنيه أمام عينه، دقق فيه، ثم انفجرت من فمه ضحكات مدوية.عندما رجع إلى شقته، ظل مستيقظًا حتى الثالثة صباحًا، ثم..

صوت المعطف: «أين تأخذني في هذا الوقت المتأخر من الليل!».

نزل الشارع، كان خاويًا من البشر، مشى يوزِّع نظراته هنا وهناك في حذر شديد، جميع الدكاكين مُغلقة، وحين يمرُّ بدكَّان، يُبطئ في مشيته، أو يقف ويُبحلق في جميع زواياه.

صوت المعطف: «الدكاكين مُغلقةٌ الآن، اذهب إلى فراشك وعُد في الصباح إذا كنت تود شراء شيءٍ ما».

مرَّ به كلبٌ أسودُ صغيرٌ، منظره جميل، دار حول رجليه، يرفع ذيله يهزُّه فرحًا، نزل إليه وربت على رأسه، حمله على ذراعه ومشى به خطوات وسط الشارع.

حدَّق الكلب في عين نجيب كأنَّه يسأله إلى أين تأخذني.

صوت المعطف: «هل ستربيه في شقَّتك، أنتَ جائع على الدوام فهل ستجوِّعه أيضًا، أم سيأكل أحدكما الآخر؟ تُرى لماذا يُبحلق في وجهك، هل يعرفك. نجيب، هل تشعر بشيء غريب! هل تسمع صوت دبيب خفيف قادم من وراء العتمة التي وراء ظهرك، هناك أنفاس ترقبنا يا نجيب، أنا خائف، احذر أرجوك».

التفتَ ليرى منظرًا صعد بروحه إلى أعلى جوفه، نحو عشرين كلبًا

أو يزيد يسيرون نحوه، بدا وهو يحمل الكلب الصغير بالقرب من صدره مثل لص ضُبِطَ متلبسًا بجريمته ولا مناص له للهرب، الكلاب تقف أمامه، تسدد نحوه نظرها في شر وغلظة. وبهدوء شديد، وضع الكلبَ الصغير على الأرض، ورجع بظهره إلى الوراء نحو بضعةِ أمتار، فتجمَّعت الكلاب حول الكلب الصغير.

صوت المعطف: «اهرب، الحقيقة واضحة أمام عينك، سينهشونك بعد قليل، لماذا أنت بطيء الفهم، تأخُّرك في فهم الحقيقة سيجعلك عظمة على مائدة الكلاب».

بدأت في اطلاق صوتها، امتلأ الشارع نباحًا مريبًا أشبه ببوق الحرب، أدركَ نجيب أنّ شرًا آتٍ، ومع أول إيماءة منه بالركض، ركضت من ورائه في عزم منها أن تفتك به، لولا أنَّ مدخل عمارته كان قريبًا لما نجا. أمَّا عن السبب الذي جعله ينزل الشارع من البداية، فهو رغبته في البدء في مغامرة حقيقية بمفرده، دون مساعدة ريفال، أراد سرقة دكَّان، لم تكن ليلة سهلة.

في ساعة من ساعات الصباح، كان مُنبطحًا على الأرض، في الصالة، ووجهه ناحية السقف، يبحلق في الحقيبة المُعلَّقة في ريشة المروحة التي تتحرك بها حركة دائرية بطيئة، بينما خيالها المعكوس على الحائط يُبديها جروًا صغيرًا مُتشبثًا بفرع شجرة يضربها الهواء فيميل بها إلى الأرض ثم يرجعها إلى مكانها الأول.

نافذة الصالة مفتوحة، تمرر نفحات من الهواء إلى الداخل، هواء يتبدل في كل فينة بين رقيق مستقر وعنيف مضطرب، فكَّر نجيب لو تقذف المروحة بالحقيبة من النافذة، ليحمل عنه أثقالها رجل مُغفَّل غيره.

صوت الحقيبة: «أنزلني».

نجيب: «لا».

يرى أنّ ألقابًا ثلاثة اجتمعوا فيه، مع أنَّ اجتماعهم في واحد يعد من النوادر والمُضحكات، فهو المغفل المحظوظ المُبتلي، مُبتلي بالحقيبة، ومحظوظ لحصوله على فُرصة عظيمة للثراء السريع، ومُغفل لأنه اعتقد في مرّة، أنَّه أقوى منها، ليتضح له في النهاية أنَّها تراه صغير الحجم جدًا بالنسبة لها.

كان من الممكن أن تسقط فوقه في هذه اللحظة، لو كان ذلك حدث، لتسببت له في إصابة بالغة، لأنّها ثقيلة، أثقل منه هو.

مع الدوران المستمر للمروحة، انزلقَ أحد ذراعي الحقيبة، مالت بنفسها ناحية الأرض، تسبب ثقلها المائل في دفع سحابها لتنفتح، تساقطت رزم النقود من السقف، لم تسقط كلها مرّة واحدة، تقاطرت مثل الماء الذي يتنزَّل من قطَّارة العين، هبطت فوق الجسد الآدمي المنبطح أسفلها من رأسه إلى قدميه، وكان مُنفتح العينين، ينظرها من

لحظة قفزها من الحقيبة إلى اصطدامها به، يراقبها في تصوير بطيء من عينيه، لا تؤلمه الصدمات، لا يتأوَّه منها، يطلب المزيد، يشعر بنشوة كطفل فَرِح بحبَّات البَرد أثناء سقوطها من السماء.

دوَّى صوت الجرس، يصحبه طَرْقٌ على الباب، لم يكن دقًا عاديًا، كان عنيفًا ومتعجلًا. ولأنَّ الذي على الباب لن ينتظر طويلًا حتى يفرغ نجيب من إعادة النقود إلى الحقيبة بعدما يُنزلها من السقف؛ وقفَ قريبًا من الباب دون أن يفتحه، وتحدَّث مع الذي في الخارج، كانت ريفال، ألحتَّ عليه بتوتر ليفتح لها، رفض، أخبرته أنَّ هناك خطرًا كبيرًا ينتظره وعليه الحذر، وصفت رجلين يقفان أسفل العمارة، قالت بثقة أنّهما مخبران، ومن الممكن أنَّ لهما علاقة بالحقيبة! قالت إنَّه يجب أن يرفع يده إلى السماء ويشكر الله لأنَّها جاءت في الوقت المناسب، ادَّعت أنَّ هدفها من الزيارة تقديم اعتذارٍ جديدٍ على ما بدر منها، ظنَّ أنَّ ريفال تخدعه ليفتح لها، أمرها بالمغادرة، قال إنَّه لن يتقبَّل اعتذارها، صمتت قليلًا، فلصق أذنه على الباب يترقَّب صمتها، ثم أخبرته بصوت كان يخفت تدريجيًا، إنهَا سَتَنْتَظِرَهُ عشر دقائق فقط على أول الطريق ومعها «الموتوسيكل»، ثم ستغادر.

نظر من النافذة، رأى بشرًا كثيرين، بعضهم واقف وبعضهم يذهب ويجيء، لم يستطع تحديد الرجلين. لو كانت لا تخدعه، فإنّ المسألة

أصبحت أكثر سوءًا وتعقيدًا من ذي قبل، مسألة احتفاظة بالحقيبة، ربما كشف صاحبها عن مكانه، لو كان هذا صحيحًا، فإنه أصبح لصًّا حقيقيًّا في نظر القانون، تطارده الشرطة، قد يجد صورته منتشرة في كل مكان على أنَّه مطلوب للمحاكمة.

أعاد النقود إلى الحقيبة بسرعة، فتَّش عن هاتفه، وجده في درج الكوميدينو، دسَّه في جيب المعطف، لم يأخذ معه أغراضًا أخرى، أغلق شقته ونزل السلَّم.

عند بداية السلَّم، إلى جانب المصعد الكهربائي المتهالك، توجد غُرفة صغيرة ليس لها باب، أحيانًا ينام فيها أبو حنَّة، أو يضع فيها أغراضه. دخلها نجيب متجهًا نحو نافذة صغيرة تطل على شارع جانبي، قفز منها، ومشى حذرًا إلى أول الشارع، حيث تنتظره ريفال.

***

8

شقة ريفال، مِلْجَؤُه الوحيد، مكانها في الطابق الثاني في بناية مكوَّنةٍ من طابقين فقط، الطابق الأول محل فول وطعمية، تُشبه من حيث الحجم والتخطيط شقَّته، لكنَّها اختلفت عنها في أنَّها مرتَّبة ونظيفة. كل شيء من أثاث وجدران تتضح عليه قسمات النظام الذي تفرضه ريفال، شعر نجيب بالدفء أول ما دخلها، بسبب أنَّ جميع جدرانها تقريبًا مغطّاةٌ بالستائر.

نافذة وبلكونة في الصالة تطلان على الشارع، شارع طويل ممتد إلى مدى البصر، مزدحم بصخب المارة وأصحاب المحلّات والمقاهي وتلكسات السيَّارات، في الصالة كومبيوتر صغير على طاولة مربعة قصيرة القوائم حولها ثلاثة كراسي خشبية صغيرة. وفي ركن، كنبتين. وفي الشَّقة غرفتان، واحدة خالية، والأخرى بها سَرير واحد تنام عليه ريفال وأختها.

اتخذ نجيب الغُرفة الخالية لنفسه مخدعًا، شدَّ كنبة من الكنبتين وجعلها سريرًا.

الحقيبة معه لا تفارقه في أي وقت، وضعها أسفل الكنبة، وأحيانًا كان يتخذها وسادة، أو يجعلها بين ذراعيه وهو نائم.

اشترت له الأخت الصغيرة قفلين، واحدًا لإغلاق الباب من الداخل، وآَخَرَ يضعه على الباب من الخارج في الأوقات التي يكون فيها خارج غرفته. يعرف أنَّه يسكن مع لصَّة، لم يكن الأمر يحتاج إلى سبب ليشعر بالخطر على الحقيبة أكبر من هذا، وعلى نفسه أيضًا. قبل ذلك، نجت الحقيبة من غدرها، لأنَّها تأخرت في الهرب، ومن المحتمل، بل الأكيد، أنَّها ستعيد محاولتها مرَّة أخرى، وستجد الوقت الكافي لتهرب، لذا بات شديد الحذر منها.

شددت في كلامها، حذَّرته مرارًا، لا تظهر على الجيران، لو رآك أحدهم سيسأل عنك، وعن صلتك بي، ستتحطَّم سمعتي إن فعلت، سيقول الجيران إني أسمح للرجال الغرباء بالمبيت في شقتي، لا تقف في نافذة، لا تقرب البلكونة، لا تفتح الباب لأي غريب، لا تغادر الشقَّة أبدًا..

صوت المعطف:

- «ما هذا الجنون يا أبله، تسكن مع لصة في بيت واحد ومعك الحقيبة، قد تستيقظ في الليل وتكسر قفلك، ثم تقطعك بسكين المطبخ، أو تضع لك السم في الأكل. كيف تأمن على نفسك معها، ولماذا هي بالذات التي قصدتها، سلِّم نفسك للشرطة أهون يا مغفَّل».

تركَ المعطف في الغرفة وخرج إلى الصالة، ريفال تجلس على الكنبة، تقطع برتقالة وتأكل.

جلس في طرف الكنبة بينما تجلس هي في المنتصف.

أخرج هاتفه وبدا منشغلًا به، لم تستطع ريفال تحديد ما كان يفعله بالضبط.

حدثته عن هاتفه، وكيف أنَّه قديم، استمر قابعًا عينه في شاشة هاتفه الصغيرة، كأنَّ صوت ريفال لم يصله، ولمّا أعادت عليه كلامها، صوَّب عينه في عينها كأنَّه يخبرها بمعرفته بما يدور في عقلها، يعرف أنَّه عندما سيقول: لأني لستُ أملك النقود التي تمكنني من شراء هاتف جديد، سترد هي عليه بنظرة سخيفة مستهزئة معناها (ماذا عن الحقيبة يا غبي)

طلبت منه برقَّة وابتسامه هادئة الوثوق بها، ويأمن على الحقيبة في شقتها، وكان يصد تبسمها بنظرة مخابارتية عميقة!

في الصباح، أثناء ما كان، نجيب وريفال والأخت الصغيرة، مُجتمعيْن على مائدة الإفطار، يتناولون جبنًا أبيضَ وخبزًا مع الطعمية الساخنة، أعطى نجيب كل ما معه من نقوده الخاصة، إلى ريفال، على سبيل المشاركة في نفقات المنزل طوال المدَّة التي سيقضيها.

دخلت الأخت الصغيرة غرفتها، نجيب وريفال لم يزالا يتناولان

الطعام، غرفة نجيب التي فيها الحقيبة، مفتوحة، لاحظ أنَّ ريفال تصوِّب نظراتها نحوها، فقام وأغلق بابها بالقفل، ثم عاد.

عاتبته لأنَّه يظن أنَّها تُدبِّر لسرقة الحقيبة، لكن لم يكن يراها سوى لصَّة تريد الحقيبة، أخبرها أنَّه لا يشعر معها بأمان، ولولا الظروف التي جعلته يقصد شقتها دونًا عن مكان آخر، لما كانت ترى وجهه أبدًا! فأخبرته أنَّها لن تحاول سرقته من جديد، وطلبت منه برجاء تصديقها..

- «هناك شيء أقدمه لك وسأتقاضى منك ثمنه، أنت في شقتي، أخبئك من الشرطة، وأحفظ أمانتك، هذه هي الخدمة!».
- «وما المقابل الذي تريدينه بعدما عرفْتِ أني لا أملك شقَّة لأعطيكِ إيّاها».
- «شيء من الحقيبة».

قنط من حديثها، ألف مرّة أخبرها أنّه لن يفرط في مليمٍ واحدٍ من النقود التي في الحقيبة، وضَّحت أنَّها تأمل لأن يصل إلى شيء في النهاية، يغير رأيه، أو يرجع الحقيبة إلى صاحبها ويأخذ نسبة.

سألته ما إذا كان يملك خطَّة للغد، فأجابها بأنَّه ليس لديه أية خطط. وسألها عن شقتها، هل ملكك حقًا أم سرقتيها مثلما تسرقين أي شيء، فقالت إنَّها شقة أمِّها، ورثتها عنها.

- «هل تعيش معكِ؟».

- «ماتت، كانت امرأة طيّبة».

- «ولماذا لستِ طيِّبةً مثلها، الطيبون لا يسرقونَ الناس».

قالت بغضب ووعيد:

- «من الأفضل ألَّا تسألني عن شيء، أنت هنا مجرد ضيف وسترحل بعد أيَّام، وفِّرْ نصائحك لنفسك، هل نسيت أنّك أردتَ أن تصبح لصًّا ولهذا بحثت عني!».

لم يجد ما يقوله، غلبته، فغيَّر الكلام:

- «خرجْتِ في منتصف الليل ورجعْتِ في الصباح، سمعتُ الباب يُغلق مرّات، أينَ كنتِ، هل هذا وقت السطو المثالي؟».

- «ذهبتُ لأحضر أختي من العمل».

- «أين تعمل».

- «عند شبيب».

- «مَن يكون! رئيس عصابة؟».

- «منظِّم حفلات، أريدها أن تكبر وتختار طريقها بنفسها، إمّا أن تستمر شريفة، أو تفعل مثلك، تذهب إلى من يعلمها الخطيئة».

قام ومشى في الصالة وهو يقول:

- «أنا حائر!».
- «من أي شيء؟».
- «من بعض الناس».
- «لماذا!».
- «لديهم قلوب مثلنا ولكنهم أشرارٌ!».

أردف:

- «هل توافقين أن يسرقك أحدهم».
- «إذا استطاع فليفعل».
- «ماذا لو سرق أختك».

صمت.. أردف:

- «هل تحبينها؟».

قامت وبعدت عن مكانه، قالت:

- «هي أختي، كيف لا أحبها».
- «لكنك التزمتِ الصمت عندما سألتك عمَّا إذا كنتِ تنظرين إلى الحياة بهذا المبدأ في كل الأحيان، مبدأ اغتنام الفرص، حتى لو كان الشيء الذي سيسرقه اللص هو أختك، لكن هل هذه الصغيرة أختك حقًا؟ الشبه الذي بينكما يجعلني أصدق

ذلك، هل تخافين أن يسرقها لص؟ الذين يسرقون الأطفال يستحقون القتل، إنهم أغبياء حمقى أنذال أوغاد كلاب وليس لهم قلب، إنْ صُلبوا وعُذبوا عذابًا يرجون به الموت لا تنزل عليهم دمعة ولا يرق لهم قلبٌ ولا يشفع لهم شفيعٌ، من أجل بضع جنيهات يبددونها في ساعات يفرقون بين قلب وقلبه، بين طفل وأهله إلى نهاية العمر، يبيعون أحشاءه ثم يدفنونه في مكان مهجور، أو يشتريه سارق آخر فيكبر معه مجرمًا منبوذًا، وتظل أمه إلى يوم تموت تأمل يوم رجوعه، تناديه وتبكي أمام صورته، القليل من اشتياق أم لطفلها المسروق يكفي لجبر قناعة قضاة العدل في كل الدنيا ليحكموا على سارقي الأطفال بالموت مع التعزيز. وإذا هي أختك، هل كنتِ تتوقعين أن تخيري اللص فيما يختار، تقولين له أتْرك أختي وخذ شيئًا آخر، هل خيرتِ أنتِ المرأة التي سرقْتِ حقيبتها والخاتم الذي في يدها مثلًا! كانت تخرج من مكتب بريد، ربما هي أموال ابنها أو زوجها الذي يكد في خارج البلاد، ثمن الغربة المريرة. أو هي أرملة، وهذا معاش أطفالها الصغار، الذين لا يكبرون عن أختك. هل فكرْتِ في كل ذلك قبل أن تمدي يدك إلى حقيبتها. أو سألْتِ نفسك لماذا امرأة تصرخ وتلطم وجهها من أجل خمسمائة جنيه، بالطبع لأن هذه النقود هي كل ما تملك. تسببتِ

في ألم كبير لها يا ريفال. وهذا الموتوسيكل الذي كدنا نُقتل بسببه، ملك من؟ من صاحبه؟ هل هو عامل غلبان يدفع ثمنه على سنين. سيضطر إلى تحمل أقساطه من عرقه لتستمتعي به أنتِ، أو يكون صاحبه فلاحًا يعينه على السفر من قريته إلى المدينة، أم ماذا».

- «اخفض صوتك كي لا تسمعك أختي، وتذكَّر أنتَ الذي قصدتني، أنتَ بحثتَ عني لم أبحث عنك. لماذا أردتني أعلمك شيئًا لستَ مقتنعًا به، تراه جرمًا كبيرًا. أعرف أنّك أرجعت النقود إلى زبائن المطعم، أنا لست بهذه السذاجة التي تسمح لك بخداعي».
- «لم تكن نقودنا».
- «ما الجديد، ألا رأيت الطاولة كيف كانت ممتلئة بالأكل. هذا الرجل لا يهمه النقود التي أرجعتها له، لكنها بالنسبة لي ولك تعني الكثير. نظارة الشمس التي كانت على الطاولة يُمكن أن نشتري بثمنها ثيابًا تكفينا سنوات».
- «نعم هو رجل ثري، لكن لماذا لا تفعلين الذي فعله ليحصل على هذه النقود».

- «أنا أفعل هذا حقًا، أسرق».
- «تفترضين أنهم جميعًا جمعوا أموالهم من السرقة، هناك من مشى على الصراط المستقيم، وذاق المر وتحمَّل كثيرًا، الثراء هدية اليقظين الذين تعبوا. إذا أصبح سرقة الفقراء للأثرياء عقيدة فستحل الفوضى».

***

لم يعد كل شيء في البيت أنثويًا كما كان قبل قدومه، أصبح هناك ثياب رجالية، وملابس داخلية رجالية، وأدوات حلاقة، وغير ذلك.

ثمّة مشكلة ظهرت..

كيف يُمكن لرجل أعزب، في سنِّه، تحمل لياليه في شقة مع فتاة مثيرة، ستكون ليالٍ طويلة ممتلئة بالتفكير العميق، وصراع غريزي مشروع، الأقوياء فقط هم من يتحكمون في غرائزهم، هذا صحيح، لكن أغلب الناس ضعفاء. هل من الممكن، لأنّها لصَّة، أن تسمح له باعتلاء جسمها، لم تلمح له بذلك إلى الآن، لم تعطه ضوءًا أخضر ليخطو إلى المحظور، أحيانًا يصوِّب نظراته إلى الأجزاء المثيرة في جسمها، أو يشرد حين يكلمها عن قرب، فيذهب في شروده إلى معركة دامية بين شفتيه وشفتيها، يفكِّر في تكتم شديد حتى لا تكتشف رغبته فتطرده

من الشقَّة، فينتشر بين الناس أنَّ لصّة طردت رجلًا أراد مضاجعتها رغمًا عنها في شقتها، وتؤلَّف كُتبًا في أيِّها الشريف!

استطاع بصعوبة بالغة، على مدى الأيّام التي قضاها معها، كبح شعوره الغريزي نحوها في كل مرة تسير أمامه بتبختر، أو تتدلل، أو لا تفعل شيئًا باتًا. لم تكن تقصد جذب عينه، أو إيقاد نار الفتنة في شقتها الصغيرة، خُلِقَت على هذا النحو من الجمال الذي تقف له مشاعر الرجال تعظيمًا وإجلالًا، ريفال هي الأنوثة نفسها.

كانت تخرج بالساعات وتتركه وحيدًا في الشقة، أحيانًا، في الأوقات التي ليس فيها عمل، تبقى الأخت الصغيرة معه. استطاع كسب ثقة الأخت الصغيرة، يراجع معها واجباتها المدرسية ويشرح لها المسائل المعقدة بروح مرحة، فارتبطت به ارتباطًا وثيقًا، تشتري اللبن ثم يغليه على النار ويسقيها، يساعدها في اختيار ثيابها فيفضل لها ثوبًا على ثوب وتوافق على اختياره بثقة، يساعدها في غسل شعرها وترطيبه بالزيت وتصفيفه.

من ناحية أخرى، ظنَّت ريفال أنّها عندما تسمح لرجل يملك كل هذه النقود، بالمبيت في شقتها، أنَّه سيكون سخيًّا جدًا معها، وسيمنحها يوميًّا أجرًا على شهامتها معه، لكن نجيبًا لم يكن ذلك الشخص الذي حسبته.

في مرَّة، حدّثته عن معطفه، قالت إنَّ عليه إلقاءه في القمامة، لأنَّه لا يليق بإنسان، عرض عليها أن تشتريه، رفضت، اشترت قميصًا من الذي يتحمَّل برد الشتاء، وقدمته إليه على سبيل الهدية.

***

لم يكن أحد في الشقَّة سواه، مرَّ أكثر من أسبوع وهو محبوس بين الجدران، رآها فرصة يُمكن ألا تتكرر، ريفال وأختها خارج الشقَّة، يُمكنه أن يخرج إلى الشارع يتمشى دقائق ثم يرجع قبلهما، لكن ماذا لو عادت ريفال ولم تجده في الشقَّة، ماذا ستفعل بالحقيبة!

ارتدى مِعطفه وحمل الحقيبة على ذراعه ونزل الشارع، ينظر في وجوه الناس مثل الذي لم يرَ وجوهًا بشرية في حياته، شعر لأول مرّة أنَّ الهواء له مذاق، تبختر في مشيته، لم يبعد كثيرًا عن شقَّة ريفال حتى لا يتوه، وأثناء مشيه، سمع صوت سرينة بوليس تدوي خلفه، تعرَّق وشعر باضطراب في جسمه، لم ينظر خلفه، استمر في مشيه، إلى أن اقتربت السيَّارة التي كانت تعوي منه، «ملَّاكي» بيضاء تسير إلى جواره، فتح السائق النافذة طالبًا منه بأسلوبٍ منمَّق ومُهذَّب أن يركب معه، تعجَّب نجيب من رغبة صاحب السيارة، من الواضح أنّه ليس من الشرُطة، وليس بينهما سابق معرفة، فمن يكون إذن، سأله نجيب عن نفسه، فألح، دون الافصاح عن شخصيته، أصرَّ على نجيب

أن يركب، قال: «اركب وادفع ما تريد.. أو إذا أحببت أدفع لك أنا، المهم أن تركب».

صوت المعطف: «لماذا لا تذهبين معه يا حُلوة، حرام أن تتركيه هكذا يغلي، قد يكتب السيّارة باسمكِ لو وافقْتِ ها ها هاااي».

صاح نجيب في وجه سائق السيّارة: «أنا رجل شريف يا أستاذ، ابحث عن غيري».

فانطلق سائق السيّارة يضرب كفًا بكف..

في المساء..

ذهب مع ريفال من أجل زيارة الأخت الصغيرة في مكان عملها، ارتدت ريفال فستانًا أحمر فاقعًا يكشف عن كتفيها وجزء من صدرها. توقفت سيارة سوداء فاخرة، أحدث طراز من النوع (BMW)، بابها الخلفي أمام سجادة حمراء أنيقة تفترش الأرض، وممتدة إلى داخل قاعة كبيرة. رجل مهذَّب الثوب والتصرف، ببدلةٍ أنيقة وحذاء يلمع، يقف عند الباب، يفتحهُ لتنزل امرأة تُعرَف على أنها ممثلة مشهورة، خَطَت خطوات قليلة إلى الأمام، وسط صيحات جمهورها الذي منعه عنها فاصل من الرجال الأقوياء. أعطت الأختُ الصغيرة للممثلةَ وردةً بيضاء، تقف على السجادة في انتظار الضيوف، تُهديهم وردة من الورود الكثيرة التي في يدها، تلبس فستانًا أخضر وحذاءً أبيض برّاقًا مرفوعًا

من خلفه، أضفى ذلك بهاءً على وجهها المستدير الأبيض، وشعرها الأسود المسدل خلف ظهرها.

يحدث ذلك تحت سماء صاخبة، مبهرجة بالألعاب النارية التي تُضوِّي.

توقفت سيارة أخرى وترجَّلت منها شخصية جديدة، وهكذا..

الأمر عاديٌّ بالنسبة للمهرجانات السينمائية، أناس قادمون من كل مكان، ليكونوا من الشخصيات التي يكرمها المهرجان، أو ضيوف شرف، أو صحفيين، والكثير من العامة الذين يحلمون بلقطة واحدة تجمعهم بنجمهم المفضل، لذا كان المكان مزدحمًا عن آخره.

استمر توافد الشخصيات المعروفة، واستمر الرجل الأنيق يفتح باب كل سيارة تقف على السجادة ومن ثمَّ إرشاد النازل منها إلى الطريق، كذلك الأخت الصغيرة وظيفتها الرئيسية تقديم وردة واحدة فقط إلى كل ضيف. وظيفتها تحتاج إلى مواصفات خاصة، وجه بريء، ذوق في التعامل، ذكاء، وتعلم بعض فنون (الإتيكيت)، وكانت ريفال قد علمتها كل هذه الأمور من أجل الوظيفة.

حضر ضيفٌ جديدٌ، وقفَ أمام الأخت الصغيرة، كانت منشغلة بتركيز عينها على السماء المنفجرة بالألوان، الأمر مثيرٌ حقًا، تكفي إثارته لجذب عين طفلة في عمرها، وقطعها عن أي شيء آخر. حضرت

الكثير من الحفلات من ذي قبل، لكنها لم تبصر السماء سعيدة مثل هذه الليلة. ونتيجة لشرودها، منحت الضيف وردتين بالخطأ. لم يكن عليها فعل ذلك، لأنَّ شبيب، لا تتخطَّاه هذه الهفوات. بعد ثوان، وجدت نفسها تعلو في الهواء فجأة، وصلت إلى ارتفاع جعلها فوقَ الرؤوس، الفاعل هو شبيب، رجل فحل عظيم الجثَّة وفي ملامحه خشونة، مثل قُنفذ منتفخ محاط بالشوك. أصلعًا يزيد طوله عن مترين وله شارب كثٌّ يخف شفته العليا، وتمتد بطنه المنفوخة إلى أمامه نحو ربع مترٍ. ضمَّ لها حاجبيه الغزيرين شعرًا، وحدّج كأنَّ في عينه شيطان، خضَّها، حركت رجليها في الهواء ولكمت بهما كرشه ليفلتها.

قال بصوت يُشبه الصوت الذي يُصدره المرء إذا تجشأ بعد شربه لتر مياه غازية:

- «وردتان! رأيتُكِ تعطين الضيف وردتين، ستدفعين ثمن واحدة، أو تدفع لكِ أختكِ العاهرة ثمنها».

وعلى هيئته المخيفة، خصوصًا بالنسبة لطفلة في سنِّها، إلَّا أنَّها كانت تنظر إليه في جرأة وعدم اهتمام، تتعامل مع «شبيب» على أنَّه الدُمية التي اشترتها لها أختها، لأن ريفال هي من جاءت بها إليه، أحيانًا تتعرض الدُمى لحوادث، تتحول إلى شيء مُخيف، لكن تظل في عين الأطفال مجرد دُمى. استمر في توبيخها، ثمَّ أنزلها لتقف في

مكانها مرَّة أخرى، حاولت ركله بحذائها، لكن ركلتها كانت ضعيفة بحيث لم يشعر بها.

من بين الضيوف، أو كما أرادا هما إيهام الناس، ريفال ونجيب، ظهرت ريفال كشخصية مهمَّة من فرط أناقتها ومشيتها التي بها ترف وأنوثة طاغية، أمَّا نجيب، الذي كان يسير إلى جانبها، فبدا للجميع، بفضل القميص الذي اشترته له ريفال، أنَّه يرتدي زيًا تنكريًا!

قال محدثًا ريفال ومعاتبًا لها:

- «ليتني ما سمعتُ كلامك وارتديتُ القميص».
- «على الأقل أفضل من المعطف الأجرب».

كانت الأخت الصغيرة قد دبَّرت لهما دعوتين على أنهما من الضيوف، لذا مرَّا على السجادة الحمراء، وحصلا على وردتين، ومن الطريف أنَّ بعضًا من الصحفيين طاردوهما على أنَّهما من مشاهير الحفل!

جميع المدعوين وصلوا وأصبحوا في الداخل، لذا انتهت مهمَّة الأخت الصغيرة هذه الليلة، وبعد وقت غادرت ريفال الحفل متَّجهة صوب أختها في غرفة استبدال الملابس، فوجدتها حزينة مكسورة، لأن شبيب حرمها من نصف أجر الليلة. لم تهدأ ريفال، شعرت بالظلم، من فورها اندفعت تبحث عن شبيب، وجدته في غرفته، صبَّت عليه غليلها، شتائم لا نهاية لها، قفزت في الهواء

لتلطم وجهه، وساعدها نجيب في مهمتها، لم يفارقها في كل خطوة، فعل مثلها، لكنهما معًا لم يقدرا على زحزحة شبيب من مكانه خطوة واحدة، كأنهما يحاولان تحريك جبلٍ، طردهما من الغُرفة، دفعهما بيد واحدة، ثم أغلق الباب.

على مسافة من مكان الحفل، فوق تلَّة مرتفعة تظهر من ورائها القاهرة صغيرة، جلست ريفال إلى جانب نجيب، على أرض خضراء رطبة. السماء هادئة، لا أضواء أو أصوات، الأخت الصغيرة تنتظر الانفجارات مرة أخرى، تعرف أنَّها ستعود حتمًا مع انتهاء الحفل وخروج المدعوين، تنظر إلى الأعلى بترقُّب، تسرح بخيالها، تحلم بفرقعة ملَّونة تخض السماء بوم بوم، هكذا أحلام الأطفال تكون، أحلامًا جميلة ملوَّنة، لو كانت أحلام الأطفال تتحقق لتسلحت الجيوش بالحلوى.

هذه العنيدة، الجميلة، التي لا يثق بها، ويخشى على حياته منها، ولا يعرف عن ماضيها أي شيء، جعلت قلبه يتحرَّك لها، يخفق باسمها. انتقل به الحال من إعجاب بجسد إلى إعجاب بروح، حِسٌ صار يراوده على الدوام بأنَّها مدَّت يدها المُكتنزة بالمشاعر إلى قلبه فجعلته في قلبها قلبًا واحدًا. صار لها في قلبه نصرٌ وتمكين وراءهما بدايات حب وتعلُّق. تفهمه أكثر من نفسه، ويشعر أنَّ له في قلبها محبة وعشقًا تحاول في كل وقت إخفاءه. وعلى الرغم مما أعده في حسنها، لكن شعورًا بخيبة الأمل كان يغمره، عندما يُدرك في لحظة تفكِّر، أنَّ ريفال لصَّةٌ.

الحُب يحرق ما قبله، فهل يخوض في حبها ويغفر لها، أو يطلب منها التبدل إلى إنسانة شريفة، إذا فعل، فهل توافق من أجله، لكن لماذا توافق، من الممكن أنّها لا تبادله نفس الشعور بالحب، أو تبادله لكن لن تضحي بشيء تكتسب منه قوت يومها من أجل الحب. وما نهاية ذلك العشق المهدد بالأخطار، ليلة زفاف أم ليالي طويلة في السجن.

احتاج مساعدتها من ذي قبل، وإلى اللحظة تساعده، لكن الارتباط بامرأة شيء آخر يلزم الكثير من التأني والتفكير العميق، خصوصًا إذا كان لنجيب تجربة سابقة مع الحب، تجربة أليمة بكل المقاييس. تداخلت الأفكار التحريضية في عقله، حرضته على حبها، ومصارحتها، اختلطت ببعضها وتعقدت بحيث عجز عن استخراج فكرة واحدة صحيحة ومنطقية، وفي كل مرة كان يضع اللوم على قلبه الذي لم يحترس قبل أن تسرقه ريفال.

الكثير من الأسرار تُفصَح أثناء الليل، خصوصًا فوقَ تلة مرتفعة في جو يُشبه نسمات الصيف، وتحت قمر ينظر من الأفق. أدرك أنَّ الوقت والمكان مناسبان لمصارحة ريفال بشعوره نحوها، أو على الأقل يُلمِّحُ لها بذلك.

قال يحدثها وناظرًا إلى الأخت الصغيرة:

- «أختك تنظر إلى السماء، تنتظر الفرقعات، تُحب أن يحدث ذلك، أنا أيضًا أنتظر حدوثه».

- «غبية مثل أختها، لا يجب عليها التعلّق بشيء، لأنها ستنام حزينة على فراشها إذا لم تنفجر لها السماء. لكن دعني أسألكَ سؤالًا، ماذا لو أحببتَ أنتَ شيئًا ما، دعني أقول، على سبيل المثال ليس أكثر، امرأة، وتعلقت بها جدًا، فهل كنتَ ستفعل مثل أختي، تضع يدك على خدك وتنتظرها إذا غابت؟».
- «دعك مني، لكن، هل قال رجلٌ لكِ أنَّه يحبك من قبل».
- «نعم كان هناك رجل، لكن للأسف، لم يكن لصًّا، كان مثلك».
- «أريد أن أعرف أكثر».
- «خشي مصارحتي بالحب، أدركَ ماذا يعني أن يقول رجل شريف لفتاة لصَّة أنَّه يُحبها، هذا يعني الكثير».

لم تُعطه فرصة لأن يصارحها، شعر أنَّها، من كلامها، سبقته في المصارحة، وأنَّ ما قالته عن الرجل الذي أحبها، ليس سوى مثال تقصده به. تيقن أنَّها تُحبه، وشعرَ بصدقها في ذلك، لكن خشي أنَّ حبها للحقيبة سيكون أكبر، وأنَّها قد تخونه معها في أي وقت، لذا أمسك لسانه ولم يخض معها عن شعوره. انفجرت السماء مجددًا، وقفزت الأخت الصغيرة من فرط سعادتها، تدحرجت بجسدها الصغير على الأرض مثل كرة من اللهب، مشهدًا على غير العادة. من مكانهما، شعرا أنهما وسط السماء، يحلقان بين الشرارات الملونة، شعرًا أنهما

ضوء كالأضواء وروح تسبح فوق العالم. وأثناء مغادرتهم، قابلهم شبيب، بذات الوجه الذي لا يضحك، والطلَّة التي يهب معها هواء ممتلئ بالسموم. وقف نجيب في وجهه، يعرف فارق القوّة بينه وبين شبيب، لكن رأى أن عليه الظهور بهذه الصورة الجريئة أمام ريفال وأختها. تقدمت الأخت الصغيرة، وقفت أمام نجيب، في وجه شبيب وقد غرست يديها الصغيرتين في وسطها. من الممكن إذا تحرَّك شبيب خطوة واحدة أن يدعسها بقدمه. مدَّ شبيب يده في جيبه، أخرج نقودًا، ثم قال محدثًا ريفال:

- «خذي نقود أختكِ، أنا لا آخذ حق أحد، أردتُ فقط جعلها لا تشرد أثناء العمل. أنا إنسان طيِّبٌ، لستُ كما تصَّوريْنَ».

خطفت ريفال النقود من يده بسرعة، وقفزت الأخت الصغيرة وهي تحاول مجاوزة كرش شبيب لتصل إلى صدره، وكانت تردد في فرح بالغ:

- «أنتَ طيب يا شبيب، أنت مثل جيرسي».

مال نجيب إلى ريفال ليسألها عن «جيرسي» ماذا يكون، فقالت همسًا:

- «كلب الجيران!».

***

بعد منتصف الليل، كان مستلقيًا على كنبته داخل الغرفة، حاول استدعاء النِعاس، محاولة غير ناجحة، أغلق عينيه رغمًا عنهما، ثم فتحهما، لكن لم يرَ شيئًا ما عدا العتمة، حسب أنَّه فقد بصره، ثم أدركَ أنّ الكهرباء قُطِعَت.

يريد الوصول إلى هاتفه ليضيء الكشَاف الصغير الذي في مقدمته، يبحث عنه، لا يعرف أين تركه، على البلاط أم تحت الكنبة أم في جيب معطفه، في النهاية لم يصل إليه.

خيوط من الضوء تكسر العتمة، تتسلل إلى غرفته من أسفل الباب، قادمة من الصالة..

تحسس الحقيبة عند رأسه، حملها ومشى يتلمّس الأشياء من حوله، فتح باب الغرفة، ريفال في الصالة، أمام الطاولة، تضع أمامها هاتفها الذي يرسل خيوط الضوء، تفرد المعطف على رجليها، تلضم زرًا جديدًا في جسده مكان الذي نزعه نجيب من قبل، شدّ كُرسيًا وجلس مقابلًا لها، وضع الحقيبة على كرسي ثالث بينهما.

ألقى صوت عليه التحيّة، صوت طالما رآه منفرًا ومُستفزًا!، صوت

المعطف:

«أهلًا بك يا لص».

قال نجيب بصوت خافت:

- «أنت بارد».

قالت ريفال:

- «نعم؟ هل قلت شيئًا؟!».

- «لا».

صوت المعطف:

- «إنَّ يد ريفال رقيقة بشكل لا يصدق، معك حق لأن يحن قلبك إلى من تكن هذه يدها، النساء الجميلات تعرفن من رقَّة أيديهن، أتعرف، يبدو أني سأحبها لأنَّها تهتم بي أكثر منك، لماذا لا تتكلم يا لص، هل تُحب هذا اللقب، لص، بالطبع أنتَ فخور به، ليس بإمكان كل امرئ الحصول عليه، الناس لديهم فطرة حسنة تمنعهم من حصد الألقاب السيئة، لكنك لست من هؤلاء. هيَّا افتح الحقيبة واسكب النقود على الطاولة، امنح ريفال ما تحلم به، ألم يقع في قلبك حب لها، صارحها بالحب وتقاسما حقيبة ليست ملككما، ما الذي يضيرك من ذلك،

أنت لص وهي لصّة، خُلقتما ليكمل كل واحد منكما الآخر، إلى متى ستظل قلقًا على الحقيبة، هيّا أيها المجرم تشجَّع، لتظهر أمام حبيبتك على أنَّك نِعْمَ المُحِب، أفق من وهم الحب يا غبي، تعتقد أنَّها تحبك، تسعون في المئة مما يعتقده الناس ليس حقيقة، وما تبقى من المئة يحتمل ألَّا يكون صوابًا، فمن أين أتيت بتلك الثقة يا أحمق بيه».

ريفال تنظر إليه وقد اختفى نصف وجهه في الظلام، قالت:

- «لماذا لا ترد!».

قال بعدما مال برقبته قليلًا وهز رأسه:

- «ها! ماذا قُلتِ، على أي شيء أرد؟».
- «كنتُ أقول، الهدوء نعمة من السماء».
- «نعم هو كذلك، أنتِ محقة».

لاحظ لأول مرّة مُخاطًا رقيقًا يسيل من أنفها، تحاول إيقافه بمنديل، وحُمرة تضرب وجهها، وخمول في صوتها، كانت الكلمات تخرج من فمها بثقل، وعيناها مرهقتان وتلمعان كأنَّ أحدًا يخرِّط فيهما بصلًا.

- «أنتِ مريضة؟».
- «لا أعرف بالضبط، لكن أتوقَّع المرض في أيَّة لحظة بسببك».

- «لماذا بسببي».
- «أنت وحقيبتك ستجعلانني أفقد عقلي للأبد».

صوت المعطف:

- «أتعلم يا نجيب، إني أخاف على النعمة التي حدَّثتكَ عنها اللصة، ألم تقل لك إنَّ الهدوء نعمة، أخاف عليها منك، لأنَّك يا نجيب، وأنا لا أحسدك، بل أرجو لك الزيادة، تحمل في قلبك لصًّا جريئًا وذكيًّا، بمقدوره سرقة النعم التي يُرسلها الله إلى الناس.. أليس بإمكان لص سرقة الراحة من إنسان بأن يسلبه شيئًا عزيزًا عليه، حذاءه الوحيد مثلًا، أليست الراحة نعمة يا نجيب، كذلك الصحَّة، ألم تسمع عن أم أصيبت بالشلل عندما عرفت أنَّ ابنها لصٌّ، كذَّبت جميع الأخبار التي كانت تسمعها عنه بقلبها، حتى سرقها هي فتأكدت. اللص يسرق النعم ويسرق الرزق ويسرق الحياة من الناس ثم يريد أن يحيا حياته مثل الأبرياء، اللصوص أوغاد وحمقى لا يفكرون في الحسرة التي تفجع القلوب، لا يفكرون في الهدَّة التي تنزل على الرؤوس وتخرب البيوت، إنهم كالقتلة، يستحقون أشد عقاب يا نجيب، أليس كذلك، هل تتفق معي، أم سترفض لأنّك منهم؟».

قالت ريفال بعصبية:

- «أين تذهب؟».
- «ها.. أنا لا أفارق الشقة كما تعلمينَ إلّا معكِ».
- «أقصد الآن، أنتَ كثير الشرود، لماذا، أين تذهب بعقلك».
- «لا أريد الذهاب إلى أي مكان يا ريفال، لكن يحدث رغمًا عني أنِّي أسمع صوتًا يهجوني بفظاظة، يعاملني كأني أخوه الصغير وهو مسؤول عن تربيتي، يأمرني بالتخلِّص من الحقيبة».

نظرت ناحية الحقيبة وقد تبدَّت سعادة مفرطة على وجهها تحاول إخفاءها بصعوبة، ثم قالت:

- «إذا كان الأمر كذلك، انصتْ له، تخلَّصْ من الحقيبة، إني أنصحك بقلب مخلص فاستمعْ له».

عندما مرَّ بعينه على الحقيبة، وقد أدرك مقصد ريفال من كلامها، سمع الحقيبة تجادله، تقول:

- «هي تريدني، هل ستسمع لها، إنَّها لا تقدِّم لك النصائح، بل تخدعك، صدقني يا نجيب، بعض النصائح هي في الحقيقة حصان طروادة. هل ستدعها تأخذني، هل تعتقد أنَّك بهذه الطريقة الساذجة تكون مرتاحًا، وسيتوقف الصوت الذي

يحدثك للأبد. تأكد أنّك لو فعلت ستظل لصًّا، ليس من خيار إلا أن تقيني طمعك وتمنحني حريتي، تتركني أعود إلى مالكي الحقيقي، لن أسامحك إذا تأخرت فسرقتني اللصَّة المعتوهة وهربت، دعني أخبرك أشياء عنها، إنَّها ترمقني في كل مرَّة أكون معك، تحدجني بشر، تريد اختطافي من بين يديك في أية لحظة، وإني أظن أنَّها تفتح الباب كل يوم وأنتَ مُستغرقٌ في نومك لتبحث عني، أرجوك تأكد من سلامة القفل الذي تغلق به باب غرفتك من الداخل يا نجيب، احمني منها واحمني منك. أنا لا أعرف إذا كنت تسمع صوت نحيبي أم لا، وهل تراه أم لا، إنَّ لي أهلي وناسي يا نجيب، ارجعني إليهم كاملة سالمة أرجوك».

كانوا يتجاذبون أطراف الحديث، نجيب والحقيبة والمعطف، وأحيانًا ريفال، التي جعلت يدها تزحف على الطاولة ببطء إلى حيث يد نجيب، الذي أول ما شعر بيدها، انتفض، عاد من شروده، قال:

- «أعتذر مرَّة أخرى، لا بد أنَّي أفقد السيطرة على أعصابي هذه الأيام».
- «الحقيبة سبب كل البلاء، اتركها ترحل واكسب راحتك،

اجعلني أتحمّل بلاءها بدلًا منك، أريد الخير لك ليس أكثر، ما الذي سيحدث إذا مددتَ يدك وأخذتَ منها ما تريد، لن يحدث الشيء المُخيف الذي تتوهمه».

- «لا.. لا تحلمين!».

نظرته بشرر، استمرت في النظر، ثم، في هذه اللحظة، انطفأ الضوء الصادر من الهاتف، بطاريته نفدت، واحتلَّت العتمة الصالة، لم يكن يُرى أي شيء.

هدوء استمر دقيقتين..

ثم، عادت الكهرباء، ريفال لم تزل في نفس مكانها، تجلس على كرسيها، تستند بمرفقيها على الطاولة واضعة ذقنها بين كفيها وهي تنظر عند باب الشقة الذي أمامها، حيث نجيب الذي يجلس على الأرض، يسند ظهره إلى الباب محتضنًا الحقيبة في صدره، وعينه مسلَّطة في عين ريفال.

***

وصل إلى أذنه صوت متقطع من الحشرجة، قادم من غرفة ريفال، تقلَّب في كنبته يُفكِّر في الذي يجب عليه، من باب المروءة على الأقل، تقديمه إلى ريفال، أقل ما ينبغي عليه في هذا الوقت أن يذهب ليطمئنَّ عليها، لكن صوت المعطف جاءه من جديد ليذكَّره بأنَّ ريفال لصَّة خادعة، تغشُّه، ولا يجب الاطمئنان لها، وعليه ألَّا يجعل قلبه يقلق عليها، وإن كان هذا القلق بدافع الحُب، فعليه أن يتوقَّف عن حبِّها، لأن الحسناء التي أحبَّها لن تضحي بالحقيبة من أجله، كان المعطف يتحدَّث إلى نجيب بجدية وصرامة.

مشى حافيًا إلى غرفتها، صوت أنفاسها المتقطعة يعلو، طرق باب غرفتها، انتظر حتى فتحت، وقفت أمامه بوجه جامد ليس فيه دماء، تمايل في مكانها، لم تكن تعرف أنَّ نفورها من الأكل في الأيام القليلة التي مضت، وشعورها بأنَّها تهذي، هي علامات أولى على أنَّها تعاني من حمَّةٍ شديدة، لم تكتشف ذلك إلَّا بعدما ارتفعت درجة حرارة جسدها إلى نحو مقلق.

عندما وجد جسدها يرتعد مثل الذي يلتحف بلوح ثلج، أحضر من غرفته بطَّانية ثقيلة، وضعها فوقَ بطانيتها التي كانت تتغطَّى بها.

قصد صيدلية في آخر الشارع وأحضر منها طبيبًا، وأثناء ترجله مع الطبيب وهما في طريقهما إلى الشقَّة، قابل نجيب الرجل الذي قابله من

قبل، صاحب السيّارة الملاكي، ينحني على سيّارته، تحدَّث إلى نجيب بابتسامة مهذَّبة، وسأل عن ريفال.

- رأيتكَ مرَّات تقف في البلكونة، سألت الفتاة الصغيرة عنك فلم تخبرني، لكنَّها أخبرتني بمرض ريفال.

عرف نجيب أنَّ الرجل يعمل سائقًا على سيَّارته الملاكي، وهو في ذات الوقت جار ريفال، فاعتذر له عن سوء الظن الذي وقع بينهما من قبل..

- «لا تعتذر يا أستاذ، احفظ رقم هاتفي عندك لعلَّك تحتاجني أوصلَّك إلى أي مكان، واطمئن، لن أُعاملك كأي زبون، أكتب - 01090».

عندما سأله السائق عن اسمه، ادَّعى نجيب أنّ اسمه «ناجي»، ثم سأله السائق عن الصلة التي تجمعه بريفال وتجعله يبيت معها في شقّة واحدة لأيّام..

تبلَّم نجيب ولم يجد ردًا مناسبًا، خاف ألّا يتقبَّل السائق كلامه ويبدأ في الشك، تحجج بأنَّه عليه المغادرة لأنَّ ريفال من الممكن أنَّها تتألَّم الآن ويجب أن يصل إليها الطبيب بسرعة قبلما تسوء حالتها، غادر وترك علامات استفهام كثيرة على وجه السائق..

واصل المسير يرافقه الطبيب خطوة بخطوة، بضعة أمتار ويصل، لكن..

عاد صوت المعطف من جديد، همس خفيف بالكاد يسمعه نجيب:

«يا غبي، ناجي يا غبي، اسمك ناجي، لماذا هذا الاسم بالذات، اختياراتك دائمًا سيئة، هل تعرف حجم الكارثة التي ورَّطت نفسك بها يا ناجي بيه أو يا نجيب باشا، لماذا تحدثت مع السائق، بالطبع لم يصدق كلامك، سيذيع في الجيران خبرًا أن رجلًا غريبًا يعيش مع ريفال في شقتها، رجلًا غريبًا ليس زوجها، رجلًا متوترًا لا يستطيع تعريف نفسه، حذَّرتك ريفال ألا تقف في بلكونة أبدًا، لكنَّك وقفت، ليراك السائق ويبدأ بالسؤال عنك، تحسب أن الأخت الصغيرة لم تخبره حقًا عن شخصيتك! ربما أخبرته أنَّك لست قريبها، لقد تسببت في مشكلة لنفسك ولريفال، عندما تعرف ريفال بالمصيبة التي ارتكبتها ستقتلك، أو على الأقل ستطردك من شقتها، أنت غبي، غبي».

قال هامسًا حتى لا يلفت نظر الطبيب:

- «لن يحدث شيء، اسكت أنت وكل شيء سيكون بخير».

بدأ الطبيب يشعر بالقلق من نجيب الذي يتحدَّث إلى نفسه..

صوت المعطف: «أنت في الشارع، هل تعرف معنى ذلك، أسرع

يا نجيب، هل تظنني أقول أسرع لأنّ ريفال مريضة؟ أقول أسرع لأنَّها في الشقَّة بمفردها، هل تفهم مقصدي، ريفال هناك، مع الحقيبة، ستدق قفل الباب وتدخل، هل تظن أنَّها مريضة حقًا؟ لماذا لا تظن أنَّها تتمارض لتجعلك تنزل إلى الشارع فتسرق الحقيبة».

- «لم أعد أعرف هل أنتَ خائف عليها أم منها».
- «اترك أسئلتك المتخلفة واجرِ يا عبيييييط».

سدد نظرات فلسفية عميقة إلى كل مكان في المعطف، ازداد قلق الطبيب عندما بدأ صوت نجيب يعلو بالكلام دون سماع صوت آخر يُكلمه، وشعر بالرعب، عندما جرى وجرَّه خلفه.

أصبحا في الشقَّة، بدأ الطبيب يفحص ريفال، وصف دواءًا على أن يُؤْتى به في الحال، مع بعض الأدوية الأخرى.

أحضر نجيب الدواء، علَّق الطبيب زجاجة محلول في سقف السرير، أتمَّ عمله. ومررت ريفال إلى نجيب، بعيدًا عن عين الطبيب، خمسون جُنيهًا ثمن الكشف.

نامت الأخت الصغيرة في مؤخرة السرير، عند قدم ريفال، وأحضر نجيب الحقيبة من غرفته، جذب كرسيًا وجلس أمام السرير، واضعًا الحقيبة بين ذراعيه، وخلد إلى النوم وهو على هذه الحال.

في اليوم التالي، تحسّنت حالتها قليلًا، لكن لم تزل تلزم سريرها، نجيب يدخل إليها باستمرار، يضع لها المشروبات التي تنفع في مثل هذه الأوقات، ويصنع لها شوربة الشعيرية.

لم تفتح عينها مرّة إلّا وكان وجهه الحزين يملأ عينيها.

تطرَّق إلى أذنه، من مكانه في غرفة ريفال، صوت الأخت الصغيرة أثناء ترحيبها ترحيبًا ثقيلًا بشخص ما، كأنَّها تطرده لا تدعوه ليدخل. كان شبيب هو الضيف، جاء من أجل الأخت الصغيرة، لديها بعض فساتين العمل، أحيانًا تغادر بزي العمل إلى البيت، جاء ليستردها منها.

أجلسته في الصالة ودخلت الغرفة التي ترقد فيها ريفال، أخرجت الفستانين من الدولاب، خرجت بهما إلى شبيب. عندما عرف من الأخت الصغيرة بمرض ريفال، أصرَّ على إلقاء نظرة عليها قبل مغادرته، وقف عند رأسها، لم تشعر بوجوده، كانت ذاهبة في النوم، سأل نجيبًا بلهجة يملؤها الشك عن ريفال، هل هي مريضة حقًّا؟، طلب منه نجيب، بنبرة ساخرة، أن يدقق النظر ليتأكد، فطلب شبيب منه إخبار ريفال، عندما تستعيد عافيتها، بزيارته لها، ووعده نجيب بأنَّه سيحقق مطلبه، وقبل مغادرة شبيب، أثناء ما كان يقف على باب الشقّة، ويقف معه نجيب ليودعه ويغلق الباب خلفه، سأله شبيب إذا

كان يريد أن يعرف أمرًا هامًا، فسأله نجيب عنه، فقال شبيب: «لا تثق بهذه الفتاة الملقاة على السرير».

قالها ولم يشرح شيئًا لنجيب، وأردف:

- «من فضلك عندما تستفيق أخبرها أن العمل متوقف لمدة أسبوعين، وعليها ألّا تُرسل أختها طوال هذه المدّة».
- «سأفعل».

غادر شبيب.

❋❋❋

10

الساعة تقترب من الرابعة فجرًا، والهدوء يفرض نفوذه على أرجاء الشقَّة، في هذا الوقت، حدثت جلبة عظيمة في الصالة، أشياء كثيرة تسقط وتتحطَّم، والأختان تصرخان بمزيج من الفزع والرُعب، صحا نجيب قلقًا، خرج من غرفته ودلف إلى الصالة مسرعًا، وجد رجلين ضخمين بملامح قاسية، أحدهما يحمل الأخت الصغيرة ويهم ليغادر بها الشقَّة، وريفال تحاول تخليص أختها من يده، ويبعدها الرجل الآخر. لم يشعر نجيب بنفسه وهو يجري ناحية الغريبين ويلكم أحدهما في صدره، ليلتفت الرجل الملكوم ويثأر لصدره بتسديد ضربة قوية في وجه نجيب، ليسقط على الأرض وقد تحوَّلت الأشياء في عينه إلى ضباب.

رأى نجيب أنّ اليد غير النظيفة لا تجلب إلا البلاء حتى تنظف، ريفال لصَّة، هذا معروف بالنسبة له، لكن الذي لم يكن يعرفه، أنّها في أحيان كثيرة يكون لها شريك في السرقات، شريك يأخذ النصف أو أكثر من حصَّتها، ليس في ذلك مشكلة، لكن المشكلة بدأت عندما سرقت ريفال شريكها، رجل اسمه «بومة الديب»، لص وتاجر مخدرات وبلطجي، وله نفوذ وبلطجية يعملون بأمره..

قبل مغادرة الرجلين، سمع نجيب أحدهما يقول لريفال: أمامكِ أسبوع واحد، إذا لم تحضري النقود سنرسل لكِ أختكِ قطعًا صغيرة.

ريفال، تبكي، تنادي أختها الصغيرة في كل وقت، تعرف أنَّ «بومة الديب» قتل من قبل، ويُمكنه بسهولة أن يقتل مجددًا، ندمت على أنَّها سرقته، لطمت وجهها.

كيف سرقتيه؟ كيف تسرقين رجلًا له كل هذه القوّة، ولماذا، وأين النقود التي سرقتيها! سألها نجيب، فقالت: سرقنا معًا خاتمًا من الذهب، وذهبتُ لأبيعه إلى أحد الصاغة على أنَّه ملكي، فبعته بعشرة آلاف جنيه، وانتظر شريكي أن أرد له حصَّته، نصف النقود، لكني هربتُ بالنقود كلَّها، أنفقتُ النقود على تشطيب الشقَّة واشتريتُ الأثاث الذي تراه أمامك، لم أتوقَّع عثوره عليَّ في يوم، كنت واثقة من ذلك.

تتألم بشدَّة من أجل أختها، سألها نجيب إذا ما كان التأثر الذي يظهر على وجهها الحزين حقيقي أم مزيَّف، هل اللصوص يتأثرون مثل الناس العاديين إذا ما فقدوا شيئًا يحبونه! ريفال تضرب رأسها في الأرض، تبدو مثل المجنونة..

ستشقين الأرض برأسِك يا لصَّة، ذوقي بعضًا مما تذيقينه للناس، أراد نجيب أن يقول ذلك، كان يقف أمامها، هي على الأرض وقدماه

عند رأسها، تضرب رأسها بالأرض، شعر بقلبه يئنُّ من أجلها، انحنى نصف انحناءة، وقبل أن يصل بيده إليها، جاءه صوت المعطف من داخل غرفته: تخدعك، قِف، تعال هنا وأغلق باب الغرفة خلفك.

أطاع كلام الصوت، اعتدل في وقفته ودخل غرفته وأغلق الباب خلفه.

كان المعطف مُلقىً على طرف الكنبة، انحنى نجيب وأخرج الحقيبة ثمّ وضعها على الكنبة، جلس بين الحقيبة والمعطف..

صوت المعطف: «يا أحمق، ماذا تريد أن تفعل، إنها تخدعك، كل الذي حدث أمامك منذ قليل ليس إلّا تدبيرًا دبَّرته من أجل سرقة الحقيبة، أو على الأقل لتدفع لها النقود التي تريدها. لا تستلم للذي يدور في رأسك، لا تفتح الحقيبة لتمنحها النقود، هل تصدُّق أن هناك رجلًا اسمه «بومة الديب» هل هذا إنسان أم طير أم حيوان، لا تسمع لها يا نجيب باشا».

مدَّ يده، كانت ترتعش، مدَّها في الحقيبة..

ألق أمام ريفال، التي كانت لم تزل على الأرض، الخمسة آلاف جنيهًا

- «سأذهب معكِ في الصباح لنسترد أختك، أين ينتظرك».
- «مدافن بولاق».

عرّفته العنوان بالتفصيل، سيذهب إلى المدافن في الصباح ليواجه «بومة الديب»، يعرف أنَّ فُرصته في البقاء هناك، مع الأموات، إلى الأبد كبيرة. لذا توجَّب عليه، وهو الذي لم يرَ بلطجيًا في حياته عدا في الأفلام، الاستعداد لتلك المواجهة جيدًا..

صوت المعطف:

- «ادخل غرفتك يا غبي، أريد التحدث إليك».

دخل الغرفه وأغلق الباب، خلع المعطف ووضعه على الكنبة، وقف أمامه، وسلَّط عليه عينه، فجاءه صوت المعطف من جديد:

- «يا خائف، يا جبان، عُد إلى أحلام المراهقة، ألم تكن لك أمنية غريبة، تريد أن تُصبح قاطع طُرق مشهور، حتى أنَّك كنتَ تقف في وسط الشارع وتمنع أصحابك من المرور وتفرض عليهم الأتاوة، هذه فرصتك لتحقق أمنيتك، أنتَ الآن لصٌّ، وغدًا ستواجه بومة الديب البلطجي، ربما تعجبه فيجعلك تعمل معه، قاطع طرق كما كنت تتمنى».
- «نعم، هذا حقيقي، تلك كانت أمنيتي، لكن، كيف عرفت؟».
- «ها! كنتُ أُخمن فقط وقد أصبتُ دون قصد، لأن هذه أمنية معروفة لدى المراهقين».
- «مُدَّني بالحل أو اسكت، أريد أن أُرجع النقود إلى الحقيبة

مرّة أخرى، وفي الوقت نفسه، ترجع الأخت الصغيرة إلى ريفال».

- «ليس هذا فقط، وسأجعلك تتخلَّص من البومة أيضًا.. سنخدعه، الحيلة يا نجيب باشا، الحيلة تجعل طفلًا أعزلًا يهزم رجلًا قويًا مُدججًا بالسلاح، الحيلة ليس إلّا يا نجيب، اسمع، أطلب من لصّتك 100 جُنيهًا ولسوف أخبرك بما عليك فعله لتخرج من مأزق هذا الديب..».

سمع لطلب المعطف، حصل على 100 جنيهًا من ريفال، لم يخبرها عن السبب، ثمّ رجع، استمر منصتًا إل صوت المعطف نحو نصف ساعة، ثم أخرج هاتفه وأجرى مكالمة مع جاره السائق!

الساعة السادسة صباحًا..

وصل مع ريفال وسط المقابر، داخل حوش ضخم، كان «بومة الديب»، وهو شاب بين الثلاثين والأربعين سنة، يجلس في الوسط، على كرسي ضخم، يرتدي جلبابًا أنيقًا، له شارب كثٌّ، وشعر كثيف يتدلى على كتفيه، في فمه سنَّة من فضَّة، وفي يده خاتم كبير من الذهب تخرج منه سلسلة رفيعة ممتدة إلى طوق أسود في عنق قط أخضر نحيف وهزيل، وحذاؤه أسود يلمع..

يشد دخانًا كثيفًا من الشيشة التي في يده، ثمّ يرفع رأسه ويُغمض عينه منتشيًا، يحبس الدخان، ثم يطلقه في الهواء..

نجيب وريفال يقفان أمام «بومة الديب» لا أحد في الحوش سواهم، ليس مع «بومة» سوى قطّته وشيشته والكرسي الذي يجلس عليه، نفر نجيب من هيئته، وشعر برهبة، من الممكن أن هذا الرجل يخفي في جلبابة ثمانين رجلًا. قد يتحول شعر شاربه إلى حِراب ويتحوّل القط العجوز إلى أسد ضخم..

- «تفضل نقودك، خمسة آلاف من عشرة.. أين أختي».

وضعت النقود عند قدم «بومة الديب»، الذي حدجها وهو يقول:

- «هل الشيء الذي معكِ (يقصد نجيب) هو حارسك الشخصي، هل اشتريْتِهِ من محل ألعاب أطفال!».

حبس نجيب تغيَّظه في صدره، ثمّ قال وفي وجهه ابتسامه مرتبكة:

- «نعم، أنا لعبتها، من فضلك يا معلِّم أحضر لها أختها».

- «نقودي رجعت، صحَّ يا لعبتها، لكن بنت الحرامية خدعتني، ولابد أن تأخذ جزاء ذلك».

صفق بيده، نادى أكثر من امرأة باسمها، فخرجن من باب ورائه، أكثر من عشر نساء، غلاظ تظهر عليهن خشونة، في ملامحهن حدَّة

وصلابة، وخرج ثلاثة رجال، من بينهم الرجلين الذين اقتحما شقَّة ريفال واختطفا أختها، أمسكوا بنجيب وأبعداه عن ريفال..

النساء المخيفات، يعرفن دورهن، شكَّلن حلقة حول ريفال، حلقة تضيق باستمرار، سيضربن ريفال، هذا واضح، وهو ما فهمه نجيب، كان ينادي «بومة الديب» يتوسَّل إليه أن يترك ريفال.. وقد بدا من بومة أنّه سيستجيب لتوسلات نجيب، قال: «تكون مكانها؟» فوافق نجيب دون تردد.. حُمِلَ بواسطة الرجال الثلاثة ووُضِع في الحلقة بدلًا من ريفال، والنسوة خلعن الشباشب والقباقيب، وأغلقن عليه الحلقة..

سقط في الأرض وقد تورَّم وجهه، النساء المخيفات غادرن، وريفال تضع رأس نجيب على رجليها في حزن وكسرة، «بومة الديب» لم يزل على كرسيه ينفث الدُّخان، الأخت الصغيرة خرجت من الباب، اتجهت ناحية أختها، تحاضنتا وتعانقتا، الخمسة آلاف جنيهًا لم تزل في مكانها، عند قدم «بومة الديب».. ثمّ، فجأة، صوت سارينة بوليس أربكَ حوش اللصوص، صوت قريب وغاضب، تخلى له «بومه الديب» عن رزانته، رمى الشيشة وحمل قطتَّة واختفى في الباب. النساء المخيفات تصرخن ونفرن إلى حيث لا يعلمن، والرجال الضخام يجرون في كل اتجاه، أشار نجيب بذراعه إلى النقود، فذهبت إليها الأخت الصغيرة وأعطتها إلى نجيب، الذي دسَّها في معطفه بسرعة.

خرج الثلاثة إلى مكان قريب، جروا إلى الأسفلت وأوقفوا «تاكسيًّا» وهربوا به، وكان نجيب، قد اتفق مع جاره السائق صاحب سرينة الشُرطة المزيّفة على أن يحضر إلى حيث هو، وأعطاه العنوان، على أن يقف عند أول الطريق، ثم يدير سارينة السيّارة في وقت محدد، مرّة واحدة، ولأقل من ثلاثين ثانية، وإذا لم يخرج له بعد هذه الثوان، يغادر، لم يخبرة بأيّة تفاصيل، قال فقط، إنَّه من المحتمل، أن يكون هناك في هذا التوقيت لزيارة قبر والده، ويريد من السائق أن يذهب إليه هناك ليعود معه في سيّارته مع بعض من أقاربه، وأنّه، أي نجيب، إذا لم يظهر له بعد الثلاثين ثانية، فمعنى ذلك أنّ نجيب لم يذهب إلى زيارة والده، وعلى السائق أن يغادر! وأنَّه اعتمد على صوت السارينة بدلًا من الهاتف لأنَّ شبكة الهاتف في هذه الناحية دائمًا مُعطلة. وأعطاه على ذلك المئة جنيه التي أخذها من ريفال!

أتمَّ نجيب خطته بنجاح، وبعد يوم، سأله جاره السائق في حيرة وخفة ظل: «هل تعمل في المخابرات يا أستاذ ناجي!» .. وسأله عن صلته بريفال مرّة أخرى، فغيَّر مسار الكلام هربًا من السؤال، وقد لاحظ السائق ذلك. لم تعرف ريفال بخطة نجيب، لم يخبرها باتفاقه مع السائق، كانت تظنُّها سارينة بوليس حقيقية.

***

وقف في النافذة المُحرَّمة عليه، لم تكن ريفال في الشقّة لذا وقف ينظر إلى الشارع، وكان جاره السائق، يقف في الأسفل، ورأى نجيب، فرفع إليه يديه يحيه، وقبل أن يبادله نجيب التحيّة، حذره صوت المعطف من ذلك، وأمره بغلق النافذة والدخول، فسمع له، ألحَّ على نجيب بأن يعترف أمام ريفال بما حدث منه مع السائق من قبل، يخبرها أنَّ السائق تحدث معه عن صلته بها، رفض نجيب الفكرة في أول الأمر، لأنّه يخشى غضب ريفال، لكن المعطف أصرَّ، وصدَّع رأس نجيب بإلحاح مستفز، وعندما رجعت ريفال، ودخلت غرفتها، طرق نجيب بابها، استجمع شجاعته وأخبرها بأسئلة السائق وبما حدث، فصاحت في وجهه، وبَّخته وشتمته، لأنَّه عرَّض سمعتها لخطر كبير، مما اتفقا عليه أن نجيب لا يفارق الشقة في أي وقت، أو يقف في النافذة، أو يخرجا معًا، اتفق معها على ذلك، لكنَّه اضطر إلى النزول عندما مرضت ليحضر لها الطبيب، لم يخبرها بالمرة التي خرج فيها بمفرده وتجوَّل بالحقيبة، خرج بصحبتها مرتين فقط، كان يغادر قبلها وينتظرها على أول الطريق..

استمرت تصرخ وتنوح في صدمة، فكَّرت معه في حل، يجب أن يكون حلًّا سريعًا، تبدأ في تنفيذه في الصباح، أو الآن إذا كان ممكنًا، فكّرت، ثم طلبت من نجيب فجأة أن يضربها، ضربًا يوجعها ويجعلها تصرخ فيسمع صراخها الجيران، مزَّقت فستانها، ونكشت شعرها،

ونادت على أختها وجعلتها تقلِّدها، وقفت ريفال تارة في النافذة وتارة في البلكونة، صاحت في المارة والجيران وزبائن محل الفول والطعمية الواقفون أسفل شقتها، تفعل ذلك وهي تردد اسم «ناجي» كثيرًا، تطلب منه الرحمة، وترجو الناس أن يعتقوها من ضربه.

احتشد الناس على السلم وأمام شقتها، فتحت لهم الباب، كادوا يبطشون بنجيب، سيقتلونه إذا تجمعوا عليه بالضرب، قالت ريفال إنَّها تزوجت من هذا الرجل، نجيب، أو ناجي كما يظنونه، تزوجت به منذ فترة وهي تعرف أنّه متزوج بامرأة أخرى، لذا تزوجا سرًا، وكان وعدها بأن يُعلن زواجها على الملأ، ثم أخلف وعده، واعتاد أن يضربها إذا طلبت منه إشهار زواجهما، لكن الآن، وقد احتشد الناس ليشهدوا على عقد زواجهما، الآن فقط، لم تعد هناك مشكلة!

قال أحد الجيران:

«معها حق، لقد رأيتك تنظر من البلكونة مرتين، وكنت إذا سألت عنك أحد يقول لا نعرفه، لماذا يا بني لا تُعلن زواجك بها، ريفال فتاة طيِّبة لا تستحق منك كل هذا العذاب».

وقالت امرأة:

«هل زوجتك الأخرى أجمل من ريفال، بالطبع لا، هذه الفتاة يتيمة، ونحن جيرانها وأهلها، ويجب أن نفرح بها».

ريفال، أقنعت الجميع بأن الرجل الذي يسكن شقَّتها هو زوجها، أسكتت ألسنتهم من العيب فيها..

لم يكلم نجيب أحدًا من الناس، كان اللوم يتدفق من أجوافهم بلا توقف، يلومونه ويرجونه أن يُعلن على الملأ زواجه، اكتفى بالنظر إلى ريفال.

عينه تقول لها : «أنتِ داهية».

كل ما فات، رتَّبت له ريفال وأرادت حدوثه، لكن جيرانها أضافوا شيئًا على خطتها، أصروا على الاحتفال بريفال ونجيب، بعد يومين مما حدث، أقام الجيران مسرحًا كبيرًا في وسط الشارع، ودفعوا ثمن كل شيء، الفرقة الغنائية، الأكل والشراب، الأنوار والزينة، حتى فستان زفاف ريفال، وجلس نجيب إلى جانبها، على أنَّه زوجها، هي في فستانها الأبيض، وهو في معطفة!

كان المعطف قد هدده: «لو تخليت عني في هذه المناسبة ستكون نهايتك على يدي يا نجيب»

بعدما انتهى الحفل، وانصرف الجميع، في الصالة، اجتمعَ نجيب وريفال والأخت الصغيرة، كانت الأخت الصغيرة تسيب أناملها على لوحة مفاتيح الكومبيوتر الصغير، بينما جلسَ نجيب وريفال على ملاءة على الأرض يشاهدان فيلمًا في التلفاز، وكانت ريفال لم تزل مرتدية فستان الزفاف.

علامات النوم الثقيل بدأت بالظهور على وجه الأخت الصغيرة، أرخت رأسها على لوحة المفاتيح كالمخمورة، فقامت ريفال إليها، حملتها وأدخلتها غُرفتها.

كان نجيب لم يزل مسلِّطًا عينه على شاشة التلفاز، عندما شعر بخطوات تقترب منه من الخلف، خطوات ريفال، جاءته في هيئة امرأة أخرى، بدلت فستان الزفاف بآخر يلتهب من الإثارة ويكشف عن أجزاء في جسمها، تلوَّت في مجون وخلاعة داخل فستانها، وكانت تضع فوقَ رأسها باروكة صفراء، وتضع وحمة مزيفة عند شفتها السُفلى، مع كثير من المساحيق على وجهها.

تحمل الحقيبة في يدها..

انزعج نجيب عندما رأى الحقيبة معها، لم يكن من المفروض أن تتسلل إلى غرفته، عاتبها، ولام نفسه أيضًا لأنه نسي باب غرفته مفتوحًا.

بالغت في حركاتها الماجنة.

جلست على الأرض، وضعت الحقيبة في المنتصف، تبادلا نظرات في صمت، مثل نظرات قطين قبل المعركة، قالت بصوت مائع:

- «لمّحتَ لي من قبل بالحب، والجميع عرف أننا تزوجنا، أنا أوافق على أن أكون زوجة حقيقة لك، ما رأيك؟».

- «لا أتذكَّر أني لمحت لكَ بمثل ما تقولين! ثم إنَّ ما حدث لم يكن إلا تمثيلًا، لم يعقد زواجنا مأذون، كل ما في الأمر أننا جلسنا على مسرح وسط الناس، هذا ليس زواجًا يا آنسة».
- «أشعر بك، لا تحاول إخفاء شعورك نحوي، كن جريئًا في أي شيء قبل أن تموت».
- «وهل هناك أجرأ من العيش معك».
- «الأجرأ أن تتزوجني».

سيطر عليه الصمت، ثم قال في تسلِّطٍ:

- «لكن لا أُحب الشعر الأصفر».

نزعت الباروكة عن رأسها، فأردفَ:

- «وأكره مساحيق الجمال».

قامت من الأرض وذهبت إلى الحوض، غسلت وجهها بالماء وعادت دون أن تجففه، جلست أمامه مرّة أخرى والماء يسيل من وجهها، أمرها أن تصعد فوقَ الطاولة وترقص، فرقصت له في خلاعة.

قالت:

- «هل تعطني الحقيبة مهرًا!».
- «أنا أم الحقيبة؟ اختاري».

صمتت، اغتاظ من صمتها، فقال وهو يجزُّ على أسنانه:

- «أنتِ مجنونة، كيف تُفكرين! انظري إلَّي، أنا رجل وهذه مجرد نقود».

قالت في ضعف:

- «ولماذا تُخيرني بينك وبينها، أريدكما أنتما الاثنان».

قال مؤكدًا:

- «تكذبين».

- «اسمع يا نجيب، أنتَ مُطارد، يبحثونَ عنكَ على أنَّك لصٌّ، الحقيبة ليست أُختك في الرضاعة لتكون مُحرَّمة عليك، سنتزوَّج ونهرب بها إلى بلد آخر ونبدأ حياة جديدة معًا. أنقذتك من الشرطة، وفتحت لك شقتي، بعد ذلك تقول إنَّك لا تثق بي، تقول إني كاذبة».

- «لكنك دخلْتِ شقتي وسرقْتِ الحقيبة».

هدأت هنيهة، ثم رسمت ابتسامة بصعوبة وقالت:

- «حسنًا، دعنا نتفق، سأكون إنسانة شريفة، سأعتزل السرقة، ما رأيك».

- «هذا جيد، أنا أيضًا سأرجع الحقيبة إلى صاحبها، ونبدأ حياة جديدة معًا».

قامت غاضبة، ركلت الحقيبة بقدمها وهي تقول:

- «مجنون والله، هذه آخر ليلة لكَ في شقتي يا مجنون».

اتجهت إلى غرفتها تجر وراءها محاولة فاشلة جديدة.

عندما صار وحده، جاءه صوت المعطف، أراد من نجيب أن يفرح، لأنّه أخيرًا سيرحل عن ريفال

- «لكن إلى أين أذهب، ليس لي مكان أذهب إليه».
- «أي مكان يا نجيب، قُلتها لك مرّات، إنَّ البقاء هنا فهو الخطر عينه، يجب ألّا تنتظر حتى الصباح، ليس من المعقول أنّ اللصة ستدعك تخرج بالحقيبة، أشعر بالخوف عليك».
- «إنّها تحبني، تريد أن تجعلني مثلها ثم نتقاسم النقود، لا تريد الحقيبة بدوني ولا تريدني بدون الحقيبة».
- «هي لا تحبك، إنَّها تخدعك فقط».
- «سنرى».

***

رأت ريفال أنّ عليها أن تعيد محاولتها مع نجيب، محاولة تعليمه السرقة، رفض، فأصرَّت، مبررة أنَّها ستنجح هذه المرَّة إذا منحها الفرصة، قالت إنَّها أخطأت في تعليمه، كان يجب أن تنظر إلى قلبه

وعقله قبل أن تزج به في عمليات السطو والاحتيال، رأت أنَّ المشكلة عند نجيب تكمن في قلبه، قلبه الطيِّب، وعليها أن تبدأ في ترويض ذلك القلب..

سمح لها بالمحاولة..

أمين شُرطة يخرج من قسم شرطة، يسلِّم رجلًا ورقةً في يده، والرجل يسلمُّه نقودًا، بعد ذلك، يذهب الرجل إلى ريفال، التي تنتظره بدورها في شارع عمومي مع نجيب، تعطيه نقودًا أكثر من التي دفعها لأمين الشرطة ويسلُّمها الورقة.

قائمة بها أسماء بعض الأشخاص، وعناوينهم..

شيءٌ واحد يربطهم ببعضهم، جميعهم سُرِقوا، وهم أكثر المسروقينَ تأثرًا بالسرقة، أكثر من فُجعوا. ريفال أردات من الرجل، أن يطلب من أمين الشُرطة إحضار أسماء هؤلاء بالذات، ستبدأ بهذه القائمة رحلتها مع نجيب.

الزيارة الأولى، مُعلِّمةٌ في المرحلة الإبتدائية، في منتصف الأربيعنات، سمراء، ممتلئة، خفيفة الظل، محبوبة من الجميع، ويثقون بها، تُعرف على أنّها أفضل من يُحوّش الناس لديها أموالهم في هيئة «جمعيّة»، زوجها رحل عن الدنيا منذ سنين، وتعيش مع ابنها صاحب ال 17 عام في شقة..

الساعة الآن الثانية ظهرًا من أحد أيّام أغسطس، تقف على بوّابة المدرسة، تُشير إلى «توكتوك» فيقف لها، السائق مُراهق، يرتدي قبَّعةً حمراء مرسوم عليها جماجم سوداء صغيرة تصرخ، ويخرج من تحت القبَّعة ضفائر شعره المجعَّد المصبوغ، وليس في ملابسه قطعة تتناسق مع الأخرى، صوت المهرجانات يسمعه القاصي والداني، والسيجارة المشتعلة في يده تنفث سمَّها في وجه المُعلّمة.

طلبت منه خفض الصوت حتى تتحدَّث إلى الهاتف، أطاعها وهو غير راض، كانت تتحدَّث إلى الهاتف بعفوية، أصغ إلى حديثها، سرق السمع، سال لعابه، عرف أنَّها تحمل في حقيبتها نقودًا كثيرة، بالآلاف، خطط بسرعة، الماكر، الداهية، اللص، الخسيس، المجرم، سيسرق حقيبتها..

لحسن حظِّه ولسوء حظِّها، أنَّ في طريق عودتها إلى منزلها، طريقًا زراعيًا منعزلًا عن الحياة. أوقفَ التوكتوك، عُطل ما حدث، عُطل مفاجيء، ادَّعى ذلك، وهي، المرأة، أو الضحية، ، شعرت بالخوف، كانت لم تزل داخل التوكتوك، تقبض على حقيبتها في قلق، تتمنى ألا يكون الذي يجول في خاطرها حقيقًيا، هل من الممكن أنّ السائق يريد سرقتي، هل أصرخ، عليَّ إجراء مكالمة، حل سليم، سأتصل إلى ابني، أطلب منه الحضور، أدلَّه بصوت مرتفع على مكاني ومواصفات

التوكتوك والسائق، حتى يعرف السائق أنّ شخصًا ثالثًا أصبح في الحكاية، ويفشل تدبيره، هذا إذا كان في نيّته تدبيرٌ أسود لي، ويارب أكون مُخطئة، يارب اجعل لي مخرجًا..

قبل أن تضع يدها على الهاتف، طلب منها السائق، بنبرة فيها أمر وجبروت، النزول من التوكتوك، حتى يستطيع إصلاحه، نزلت، رأته يرفع التوتكتوك من الخلف، ويباشر في فك وتركيب أشياء لا تفهمها، اطمأن قلبها، هناك عُطل، لم يكن السائق يكذب.

شدَّ قاسي القلب عصًا قصيرة غليظة من مكان في أحشاء التوكتوك، وقفَ أمامها فجأة بوجه عابس يخض، ارتجفت، خاف قلبها، فقدت القدرة على الحركة، فجع ورُعب وتوسل بالعفو في عينها، لم يسمع قلبه لها، ضرب رأسها بقوة بعصاه، وقعت في الأرض في لحظة، سرقَ المجرم نقودها وهرب..

فقدت الذاكرة، اتهمها الناس بأنّها تدعي ذلك لتأخذ النقود لنفسها، الشرطة حققت، الطب الجنائي أثبت صحة إدعائها، لا تعرف من دفع لها من الناس، ومن له حق، لا تعرف مكانًا لورقة تثبت حق أي أحد، ابنها أيضًا لا يعرف، الكل ادعى أنَّ له نقودًا معها، أعطيتُكِ خمس ألاف جنيه يا أستاذة من أجل الجمعيّة، وأنا أعطيتُكِ عشرة على سبيل السلف، وأنا أعطيتُك سبعة من أجل كذا..

لا تتذكَّر، لا تعرف من فيهم مُحق ومن هو كاذب محتال يستغل ظرفها الصعب، أنستها العصا الغليظة أشياء كثيرة، أنستها حتى وجه ابنها.

اجتمع الناس عليها، تجمهروا أمام شقَّتها، ضايقوها بالشتائم، واخترعوا قصصًا خاضوا بها في كرامتها وعرضها.. باعت شقَّتها ووزّعت ثمنها عليهم لتُسكت ألسنتهم، وأبقت على جزء من ثمنها لابنها.

سكنت شقَّةً بالإيجار، فقدت عملها لأنَّ حالتها الصحية تضاعفت خطورتها، بدأت تهلوس وتتخيل أشياء غير حقيقية، فقدت ابنها في مركب هجرة غير شرعية، اضطر إلى السفر بهذه الطريقة بعدما ساء الوضع، دفع المال الذي أخذه من ثمن الشقَّة ثمنًا لمكان على مركب الهجرة، فغرق المركب به.

لم يعد لها مصدر تدفع منه ثمن إيجار الشقَّة..

ما تتحصل عليه من هنا أو هناك لا يكفي حتى لإرضاء بطنها الجائعة.

كانت تلك زيارة نجيب الأولى، زار امرأة سمراء، نحيفة، كئيبة، لا تعرف عن نفسها سيْئًا، تسكن عشَّة في منطقة عشوائية، تمد يدها ليتصدق عليها الكرماء من الناس.

الزيارة الثانية..

الاسم الثاني من القائمة..

ريفال ونجيب يستمعان إلى سمر، صديقة رانسي، وهي تحكي..

رانسي الجميلة، الحياء والخجل، الضحكة البريئة، الروح النقيّة، الأناقة والذوق، كانت تحلم بهاتف نقَّال، بعد فترة، عندما أصبحت في الصف الثالث الثانوي، حقق لها أبوها، بضغط من أمها، رغبتها، اشترى لها الهاتف الذي تحلم به..

رانسي الجميلة فرحت، أخبرت الجميع، التقطت صورًا لصديقاتها، وصورًا لها، صورًا تستعرض فيها قوامها، هي في سن المراهقة وهذه التصرُّفات بديهية لفتاة في مثل سنِّها، تُغلق عليها غرفتها وتلتقط صورًا لنفسها، تستكشف بها جمال جسدها وتقارنه بنجمتها المفضَّلة، وتفرح عندما تجد بينهما شبه، أو يشطح بها الغرور فتقف على سريرها رافعة أنفها مدَّعية أنَّها الأجمل، والحق، أنَّ رانسي الجميلة، الطيِّبة، المحبوبة، كانت أجمل من كل النجمات..

وفي يوم، أثناء سيرها في الطريق وفي يدها هاتفها، تضعه على أذنها وتتحدَّث، مرَّ شابان إلى جانبها على ظهر موتوسيكل، خطفا هاتفها وفرّا هاربين.

انطفأت الفرحة، أبوها الرجل العصبي، ضربها، لم يغفر لها، ضربها مرّات، ورَّم وجهها الرقيق من الصفعات، وعلَّم ظهرها من أثر الحزام، رانسي الجميلة انقلبت حزينة، لا تفرح، لا تضحك، واستمر حزنها طويلًا.

بعد وقت، راسلها مجهول من حساب مزيَّف على موقع «فيسبوك».. أرسل إليها صورة من التي كانت على هاتفها، صورة تخصُّها، تداعب فيها أنوثتها في غرفتها المُغلقة، لو نُشرَت هذه الصورة ستكون فضيحة، اللص الذي لا قلب له، عديم الرحمة والإيمان، سرق الهاتف ولم يقل كفى، الآن يهددها، يريد مقابلتها أو سينشر صور المراهقة، التي كانت سرًا لا يعرفه إلا هي. أبوها الفظ لو عرف أنَّها كانت تضع على هاتفها هذه الصور، سيقتلها، وخشيت أن تقص الأمر على أمِّها فتخبر أباها.

ذهبت إلى اللص، الأحمق المستغل، فاقتلع قبلة من شفتيها وقبَّل أشياء أخرى في جسدها، ثم غادرت بدموعها.. بعد وقت، هددها مرَّة أخرى، إما أن تحضر أو سينشر الصور، الكلب، الخسيس، رفضت طلبه، ألحَّ، استمر في مضايقتها، وحاصرها من كل اتجاه، استمر في تهديده، واستمرت ترفض، وتتوسل إليه بذلٍّ ومهانة أنْ يغادر حياتها، أن يرحمها، لكنَّه أبى.

رانسي الجميلة، تجلس في غرفتها، الباب مغلق، فتحت هاتفها، تصفحت ال «فيسبوك»، رسائل كثيرة من كل الأصدقاء تصل إليها في الوقت نفسه، فتحت لتقرأ، مصيبة، كارثة، جميعهم يتحدثون عن صورها، يقولون شخصًا ما أرسل لنا صوركِ يا رانسي، كلها صورٌ فاضحة، وإنها الآن منشورة على الملأ في صفحات ومجموعات عامة. رانسي الجميلة، ترتجف، تتعرّق، شاخصة البصر، صامتة الدموع، تنسال من عينيها وتُغرق خديها المخضوضين، تشعر كأنَّها تُطرق بلا رحمة بمطرقة من نار وحديد، ملعون من لا يرحم، ملعون من فجع قلبكِ يا صغيرة، ملعون من يستلذ بعذاب إنسان أو حيوان، تلعنه القلوب وتلعنه الحياة ويلعنه الجماد من حوله.

صوت أبيها على الباب، وصوت الفزع يدق قلبها، أسرعت إلى الباب، أغلقته بإحكام، أبوها يطرق، وهي ترجع إلى الوراء، خائفة، ترتجف، أبوها يزعق، يشتم، وهي تبكي، وتلطم وجهها، وتشق ثوبها.. «بالكونة» الغرفة مفتوحة، الغرفة في الطابق الخامس، في أي شيء تُفكرين يا رانسي، لم تزل في الحياة أشياء تحبك وتحبينها، رانسي الجميلة، الصغيرة، البرئية، قفزت من «البلكونة»، رانسي الجميلة، ماتت، تحطَّمت عظامها الضعيفة، ملعون من لا يرحم، ملعون ملعون ملعون.

رفض نجيب الزيارة الثالثة، وكانت ريفال تضحك على وجهه المأخوذ في لا مبالاة، لم يصدق نجيب عينه، شعر أنَّها لا تحمل في قلبها عاطفة لأي شيء، وأنَّ قلبها ليس إلّا حجرًا صلدًا، وأمرها بحزم أن تكفَّ عن الضحك، فصارحته بأنَّها قصدت أن تأتي به إلى هنا ليتعلَّم قلبه الجمود، قالت إنَّ من يريد أن يُصبح لصًّا عليه أولًا أن يترك قلبه في المنزل قبل أن ينزل إلى العمل، وأنَّ هذه القاعدة، كما قالت، مهمّة جدًا وجميع اللصوص يعملون بها، و في يوم قريب، ستكون أنتَ اللص الذي سرق الفتاة المراهقة، أو سارق المرأة التي فقدت ذاكرتها، لا تنظر إلى الأمور بقلبك وإلا ستفشل.

«أنا مغادر شقَّتك في الصباح».

فرح المعطف، وشعرت ريفال بالخيبة..

في الصباح..

صوت رنين الهاتف كان يعلو..

مدَّ نجيب يده إلى بلاط غرفته ليسكته.

جعله أمام عينه، رقم ريفال على الشاشة، قام متجهًا إلى باب غرفتها، كان مواربًا، رأى أختها الصغيرة نائمة على السرير، ولم تكن ريفال في الغُرفة، أو الشقّة.

أجابَ الهاتف، صوت أنثوي مجهول يحدثه، مفعماً بالحزن، يُخبره أنّ الفتاة صاحبة الهاتف، أي ريفال، صدمتها سيّارة، ونُقلَت إلى المستشفى، وأنّها، بكل أسف، بين الحياة والموت لأنها أصيبت إصابات خطرة، وأعطته عنوان المستشفى.

لم يُفكِّر طويلًا، تركَ الأخت الصغيرة نائمة، ارتدى ثوبه وغادر في أقل من دقيقة، تعلَّق في «أوتوبيس»، بعد نصف ساعة أصبح أمام المستشفى، سأل أحد الأشخاص في قسم الاستعلام عن فتاة صدمتها سيارة، طمأنه الشخص، قال إنَّ حالتها ليست بهذه الخطورة التي يتصورها، وأنَّها في الغرفة رقم ثمانية في الطابق الثالث.

اطمأن قلبه، اتجه إلى الغُرفة، بابها مفتوحٌ عن آخره، وأشخاص كثيرون حول السرير. لم يكن يعرف أنّ لها أصدقاء بهذا العدد. حتى هذه اللحظة لم يكن رآها، المحيطون بها حجبوا عنه الرؤية، ثمّ إنها بدأت تتبدى له، لكن..

لم تكن ريفال..

فتاة أخرى على السرير، سأل نفسه، هل من الممكن أنَّه دخل غرفة أخرى بالخطأ!

عاد يتحقق من الرقم الذي على الباب، الرقم صحيح، نزل إلى

رجل الاستعلام، أكّد إنّها الحالة الوحيدة التي دخلت المستشفى في حادث سيّارة هذا اليوم .

هل من الممكن أن تكون المرأة التي حدثته في الهاتف أخطأت، دلَّته على عنوان آخر على سبيل المثال.

أخرجَ هاتفه واتصل بريفال، الخط مُغلق.

صوت المعطف يشتمه، ارجع إلى الشقَّة، إرجع بسرعة قبل فوات الأوان..

- «ماذا بك، لماذا أنت مرتبك؟».

- «الحقيبة يا غبي».

دخل الشقَّة، الأخت الصغيرة ليست في غرفتها، أو في أي مكان في الشقَّة.

وقف في مكانه متجمدًا، يفكِّر في قلقٍ.

عندما سمع الخبر السيء عن ريفال، غادر في عجلة تاركًا باب غرفته دون أن يغلقه بالقفل.

فكرة حمقاء تقف أمام عينه أينما ذهب، تمنى ألا تكون صحيحة.

من فوره دخل غرفته، نظر أسفل كنبته.

تجمَّد الدم في عروقه، الفكرة الحمقاء التي خافها تحققت، اختفت

الحقيبة، سرقتها ريفال، وما كان ذلك كله إلا تدبيرًا منها، أخرجته ثم عادت وأخذت الحقيبة وأختها.

في مكان الحقيبة، وجدَ خطابًا، مكتوب عليه بخط كبير «من ريفال»:

«عزيزي نجيب، الطيِّب المجنون، وصديقي الوفي، أعرفُ أنّك مصدوم وأنت تقرأ رسالتي، خُذ الأمور ببساطة، يجب أن تسعد لأني أرحتك من الحقيبة التي طالما سببت لك صداعًا، من فضلك اترك الشقة، لأني بعتها، ولا أُحب أن يطردك الساكن الجديد، عُد إلى شقَّتك، الشُرطة لا تُطاردك، لا أحد يبحث عنكَ، أنا من دبَّر ذلك لأكون قريبة من الحقيبة. أريد إخبارك شيئًا أخيرًا، كان بإمكاني الهروب بالحقيبة منذ أول ليلة قضيتها في شقتي، لكن أردتُ البقاء معك مدة أطول، أعترف أني قضيتُ وقتًا معك لن أنساه، أحببتُ كل شيء فيك، من وسامتك إلى قلبك الطيّب، لكن لم أحبك قط، أقصد الحب الذي حاولتَ أنتَ مصارحتي به لكنك فشلت».

مشى إلى الصالة بثقل، يتسنَّد إلى الباب والجدران وكل شيء يقابله، يشعر بدوران شديد يضرب به أرض الشقَّة، اتجه إلى الخارج، جلسَ عند عتبة الباب، أسند ظهره إلى الحائط.

صوت المعطف:

- «يا نجيب..».

نجيب مقاطعًا:

- «أرجوك لا تلومني».
- «ألم أقل لكَ إنَّها تخدعك».
- «قلتُ لا تلومني».
- «ضحكت عليك يا مسكين».
- «أشعر باختناق».
- «وحذّرتُك منها لكنَّك..».
- «اكتم».
- «يا نجي..ب».
- «اسكت».

فقد وعيه، ظل على ذلك نحو ساعتين، ثم شعر برجل تركله، فتح عينه على أشخاص يقفونَ أمامه، وآخرون يدخلون الشقَّة ويخرجونَ، أطفال وكبار، وصوت سباب يخترق أذنه: «ما هذي الأشكال، ليسَ فالًا جيدًا، قلتُ لكم نبحث عن شقّة أخرى».

ركلة أخرى في وجه نجيب، هذه المرّة أعنف، فقام مغادرًا وسط استهجان السكان الجدد.

لم يصدق أبو حنَّة أنّ نجيبًا قد عاد..

- «ألف مرّة اتصل بك يا بشمهندس لا ترد، أين كنت!».

كان مبتئسًا وحزينًا والغم في وجهه، أجلسه أبو حنَّة على استراحته، قدَّم إليه كوبًا من الشاي كان في يده، طلبَ منه أن يخبره عن أحواله طوال الفترة التي مضت، لكن نجيب كان ردهُّ كله بالصمت وإمالة رأسه يمنيًا وشمالًا.

بينما أبو حنَّة مستمرًا في إلقاء الأسئلة، قام نجيب متجهًا إلى مدخل العمارة، يسير مثل المخمور المتسكِّع، ساعده أبو حنَّة حتى وصل إلى شقته، فتحَ له الباب، وأدخله، وغادر على أن يعود مرّة ثانية ليعرف حكايته بشيء من التفصيل.

خلع معطفه، ألقاه على الطاولة.

صوت المعطف:

- «مرحبًا بك في شقتك».
- «متى ترحل عني وتتركني، أنتَ بلاء».
- «وأنتَ الرجل الذي أفتخر به، لماذا أنت حزين، يجب أن

تفرح، أشعرُ بك تسألني وكيفَ أفرح والحقيبة سُرِقَت، إنّها لنائبة عظيمة حقًا، وإني حذرتك من ذلك لو تتذكّر، لكن دعك مما مضى، الآن صرت حرًا، عُدتُ إلى شقتك وستبحث عن عمل وتبدأ حياة جديدة، أيًا كان القادم فهو أفضل لك من العيش دقيقة مع الحقيبة. كنتَ شجاعًا ولم تسمع إلى لصة، لم تشاركها الجريمة، ولم ترتكب جريمة من البداية، أنتَ بريء يا نجيب، فلمَ تستمر في لوم نفسك؟! لم تعد هناك مشكلة بينك وبين الرجل صاحب الحقيبة، تغيَّر الوضع، مشكلته صارت مع اللصة. توقف عن التفكير في هذا الرجل، فكِّرْ في نفسك، أنتَ أول ما عليكَ الاهتمام به، كن لطيفًا مع نفسك ولا تكن قاسيًا، لا تفقد الأمل في حياة قادمة، فكِّر في أنَّك جئتَ إلى الحياة من أجل مناسبة عظيمة، لن يبدأ العالم الاحتفال بها من دونك، أنتَ سيِّدُ الحفل. ثق بنفسك، أنت من العظماء يا نجيب، لا تجعل الغم يقتلك، ثق في أنَّك على حق، إذا كنتَ ترى نفسك ضعيفًا، فتنحّى جانبًا وأخرج الرجل القوي الذي بداخلك ليتعامل هو مع الحياة، الرجل الذي رفض حقيبة ممتلئة بالنقود».

كل شيء تبدَّل، حتى الصوت الذي يُحدِّثه، تغيرت أحاديثه، صار معه لا عليه.

صوت جرس الباب، فتح..

رأى أمامه رجلًا أنيقًا، في منتصف الخمسينات، قدَّم نفسه على أنّه صديق قديم له، عصر نجيب ذاكرته، هو لا يعرف أحدًا بهذه المواصفات، قال الرجل بصوت هادئ:

- ربما الأحداث الكثيرة التي تعرضتَ لها في الفترة الأخيرة أنستك أشخاصًا تعرفهم

دلف إلى الداخل دون أن يأذن له نجيب، أو يرد كلامه، اتجه مباشرة نحو الطاولة، شدَّ كرسيًا وجلس. أنعَمَ النظر في المعطف، ربت عليه برفق كأنه يربت على حيوان أليف. اغتاظ نجيب من الرجل، رآه متطفلًا بجدارةٍ، سأله في انفعال صريح عن نفسه، ترجل الرجل إلى النافذة ثمّ فتحها، نظر منها إلى الأسفل وطلبَ من نجيب أن يشاركه النظر، سيارة فارهة تقف في الأسفل أمامها مجموعة من الرجال يتسمون بالقوة، رفع أحدهما نظره إلى الرجل الذي يقف مع نجيب، ثم، وبإشارة من الأخير، فتح الرجل الواقف في الأسفل الباب الخلفي للسيارة، فنزلت ريفال، كانت خائفة وقلقة. رفعت عينها إلى نجيب، عينها تنبض بالاستسلام والخيبة، بادلها النظر بشيء من الاستغراب وعدم الفهم.

كل شيء بدا يتضح، الرجل بدأ يتكلم ويشرح، شعر نجيب بالصدمة عندما عرف أنّ الذي يتحدث إليه هو نفسه صاحب الحقيبة، ثم صدمة أخرى أشد بعدما عرف أنَّ صاحب الحقيبة، هو من وضعها من البداية في طريقه!

أراد نجيب معرفة لماذا فعل الرجل ذلك، لماذا وضع الحقيبة في طريقة، فقال الرجل الثري، إنَّه فيما مضى، لم يكن إلَّا رجلًا فقيرًا مُعدمًا، وكانت توضع أمامه حقائب كثيرة ممتلئة بالنقود، لكنه رفضها كلَّها، لأنّها كانت ضد إرادة ضميره، ثم أنَّه بعدما تبدَّلت أحواله وأصبح من الأثرياء، بجدِّه وتعبه، أراد أن يصل إلى إجابة لسؤال حيَّر لبَّه طوال سنين، هل لم يزل أحد من المطحونين في غيابات الفقر، قادر على التخلي عن حقيبة تفوح منها رائحة الرغد والثراء، لأنّها ليست ملكه!

- «ظننتُ أني لن أجد هذا الشخص، لكنَّك غيّرتَ هذا الرأي، انتظرت إمَّا أن تأخذ الحقيبة لنفسك أو تُرجعها لتأخذ نسبتك القانونية، لم أعرف أني سأسبب لك كل هذه المتاعب، سامحني».

دخل أبو حنَّة في هذه اللحظة، فناداه الرجل بطريقة أوحت إلى نجيب أنَّ بينهما سابق معرفة، أبو حنَّة أيضًا كان يعرف، وضع يده في يد صاحب الحقيبة، وهو من أدخل الحقيبة إلى الشقة، وكان ينقل أخبار نجيب.

الآن بعدما تأكد لصاحب الحقيبة أنَّ نجيبًا هو الرجل الذي كان يبحث عنه، ماذا سيدفع له مقابل كل المعاناة التي عاناها، سأله نجيب عن ذلك بعصبية، فقال:

- «لك نصف الحقيبة، ستصلك غدًا..».

لكن يتبقى هنا نقطة هامة، لماذا هو بالذات، لماذا اختار صاحب الحقيبة نجيب دون عن غيره ليضعه في هذا الاختبار الصعب، عندما سأله نجيب عن ذلك، وضع يده في جيب بذلته، وأخرج تسعين جنيهًا من نقوده، تركها على الطاولة، ثم قال:

- «هذه هي التسعين جُنيهًا التي أخذها منك حمودي ثمنًا للمعطف».

- «تعرف حمودي أيضًا!».

قام صاحب الحقيبة من مكانه، حمل المعطف على ذراعه ومشى به إلى الباب، ثم أخبر نجيب أنّ الحقيبة لم تكن الشيء الوحيد الذي يمتلكه، المعطف أيضًا ملكه، قال شارحًا:

- ذات يوم، نظر رجل كريم إلى ثوبي الممزَّق، وأعطاني ذلك المعطف، كانت حالته أفضل من الآن، ارتديته مع أنّنا كنَّا في شهر أغسطس حينها، كانت الشهور تمضي دون أن أخلعه عن

جسدي، نشأت بيننا علاقة حُب، صرنا أصدقاء.. في ذلك الوقت لم يكن لدي بيت أو عمل، ليس سُوى حرفة النجارة التي تعلمتها في صغري، فاشتغلتُ عند رجل طيّب في بولاق، ثم أصبح لي ورشتي الخاصة، ثمّ صنعتُ أول لُعبة، ومن ثمّ ألعابًا كثيرة، وبدأ الناس يشترون مني، فوضعت يدي في يد شريك، صيَّرنا بشراكتنا مصنعًا متواضعًا لصناعة الألعاب من الخشب، ثم تخلَّ عني شريكي، وتعثرت، فتثبتت، فأصبح لي مصنعًا أضخم، ثم مصانع كثيرة.. وكنتُ لم أزل مُحتفظًا بصديقي، المعطف الذي أُحبه ويحبني.. حتى طلبتُ من أحد الموظفين في بيتي، تنظيف البيت من كل شيء قديم أو زائد، فظن المعطف من الأشياء التي يجب التخلي عنها، وباعه لحمودي، فذهبتُ أنا بنفسي إلى حمودي لأسترجع معطفي، فأخبرني عنك.. فجاءتني فكرة وضعك في اختبار الحقيبة، لأنّك أول من ارتديت معطفي من بعدي، وتمر بظروف تشبه الظروف التي مررت بها».

غادر صاحب الحقيبة الشقة، ترك نجيب في وسط الصالة غارقًا في صدمته، اتجه صوب النافذة مناديًا صاحب الحقيبة قبلما يغادر بسيارته، طلب منه ترك ريفال ترحل، نظرته من داخل السيَّارة رمى في عينها نظرة جريئة تقول «رغم كل شيء، أحبك أيتها اللصة»..

وعرض نجيب التنازل عن نصف الحقيبة مقابل حريتها.

نزلت ريفال من السيارة، وقفت في مكانها ترفع عينها إلى نجيب كأنّها تريد شكره لكن لا تستطيع، ثمَّ سألته باهتمام عن نصف الحقيبة!

دخل الصالة، جلس على الكرسي، يُفكِّر في كل ما حدث..

لكن، صوتًا ما ناداهُ من جديد

- «نجيب باشا».
- «أنتَ مرَّة أخرى! صوت المعطف من جديد! لكن كيف، أين أنتَ، لقد أخذك صاحبك، من أين يأت صوتك!».
- «المعاطف لا تتكلَّم يا نجيب، ليس لها لسان، إنما أنا صوتك أنتَ وصوت الحقيبة صوتكَ أنتَ وكل الأصوات التي سمعتها هي صوتُكَ أنتَ، وداعًا يا صديقي، وانتظرني كلَّما ظهرت لك حقيبة جديدة!».

انتهت..